دلالات الخطاب القرآني للنفس البشرية
من خلال سورة البقرة

د . عمر أبوالمجد بن حسين قاسم محمد النعيمي
قسم الدراسات الإسلامية ـ كلية التربية للبنات بالخرج

ملخص البحث :

النفس وإن كانت واحدة في الجنس إلا أنها من حيث الطبائع متعددة ، ومن حيث الاعتقاد مختلفة ، ومن حيث السلوك متنوعة ، وكذلك جاء الخطاب إلى النفس مختلفاً بحسب حال كل نفس ونوعها . وقد انبعثت نفسي للبحث في خصائص النفس ، وبيان أنواعها ، وما تمتاز به كل واحدة منها . ومن أبرز ما انتهت إليه الدرسة من نتائج أن النفس المخاطبة في آيات سورة البقرة ليس المراد بها الروح وحدها ولا الجسد وحده ، بل الإنسان بروحه وجسده. وأنه ينبغي للمسلم تجنب الخوض في الماهيات ، إذ لا يترتب على العلم بها حكم عملي ، ولا فائدة دينية ، بل الدلائل قائمة على أن الله تعالى حجب علم الماهيات عن بني آدم. وكذلك أن تحديد أنواع الأنفس وفقاً للمعتقد ، ييسر التعرف على أنواعها من حيث الطبيعة ، ومن هنا عرفنا أن النفس المنافقة والكافرة أمارة بالسوء ، أما النفس المؤمنة فتتراوح بين طبيعتين : المطمئنة واللوامة . تكشف خصائص النفس عن عدة حقائق أهمها: تفرد الله تعالى بخلق الأنفس جسماً وعملاً، عجز النفس البشرية عن التشريع ، فآلات النفس محصورة في عالم الشهادة على ضعف فيها وقصور وقلة علم ، بينما لا بد للتشريع من الكمال المطلق وبخاصة في العلم والتقدير .

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين .

أخي .. إني مستفتح بذكر ثلاثٍ من صفات الكمال اللائقة بجلال الله تعالى وعظمته ، أحسب أن موضوع البحث يتعلق بها تعلقاً وثيقاً :

أولها : **العدل** ، فالله تعالى عادل في رضاه وسخطه ، وفي إنعامه وتعذيبه ، وفي كل أفعاله ، ويظهر عدله من قوله سبحانه : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الانبياء ٤٧] ، والقِسْط مصدر الفعل قَسَطَ واسم الفاعل منه مُقْسِط وهو العادل . وقوله سبحانه في الحديث القدسي : « يا عبادي إني حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نفسي ، وجَعَلْتُه بينكم محرما ، فلا تظالموا »[1] .

والثانية : **العلم** ، الثابت له في قوله تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد ٩] وفي كثير من آيات الكتاب العزيز غيرها . فعلم الله تعالى محيط وأزليّ ، عَلِم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون .

والثالثة : **الخَلْق** ، ومن أدلته قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر ٦٢] وغيرها من الآيات كثير ، فالرب تبارك وتعالى أحسن الخالقين ، أبدع خلقه على غير مثال تقدم .

و النفس البشرية لا ريب مخلوقة مربوبة لله تبارك وتعالى ، أوجدها لحكمة أرادها وغاية ، فلم تخلق عبثاً ، ولم تترك هملاً ، بل بعث إليها بالرسل ، وخوطبت بالشرائع ، وأمِرَت ونهيت ، وأعْطِيت إرادة تمكنها من الاختيار في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٩٩٤ برقم ٢٥٧٧ .

الدنيا ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ [الكهف ٢٩].

ومع أن النفس واحدة فمادة جسدها واحدة (التراب) ومادة روحها واحدة (الله أعلم بها) ، إلا أن طبائعها مختلفة ، وأحوالها متباينة ، كما أن الحديقة تربتها واحدة وتسقى بماء واحد ، ولكنها تثمر أصنافاً عدة ، وتزهر ألواناً شتى . ولا يخفى ما في ذلك من بديع خلق الله تعالى .

إذاً فالنفس وإن كانت واحدة في الجنس إلا أنها من حيث الطبائع متعددة ، ومن حيث الاعتقاد مختلفة ، ومن حيث السلوك متنوعة ، وقد علم الله تبارك وتعالى كل شؤونها وأحوالها أزلاً ، وعلم مستحقةَ النعيم والإكرام ، ومستوجبةَ العذاب والهوان ، ثم يَسَّر كل نفس لما خلقت ، يقول عمران بن حصين رضي الله عنه : « قيل يا رسول الله أعُلِم أهل الجنة من أهل النار؟ فقال نعم . قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال كل ميسر لما خلق له »[1] .

والرب تبارك وتعالى يحب أن يظهر علمه ، ليستشعر الناس جانباً من عظمته سبحانه ، ويقدروه حق تقديره ، كما يحب أن يظهر عدله في قضائه وحكمه ، بل ذكر ابن فرح القرطبي أن الله تبارك وتعالى يظهر لرسله وأنبيائه عذره في تعذيب أهل النار قبل أن يبعث بهم إليها [2] .

وأن النفس خلق من خلق الله تعالى ، وعلمه بها محيط وأزلي ، وعدله كامل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٧٤٤/٦ برقم ٧١١٣ . ومسلم في صحيحه ٢٠٤١/٤ برقم ٢٦٤٩ .

(٢) انظر : التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ٢٨٩/١ .

لا يقتصر على جانب دون آخر ، وخطاب الله تعالى للنفس البشرية في قرآنه الكريم غايته الإيمان والانقياد والعبادة .

ومع أن النفس واحدة ، وغاية الدعوة واحدة ، إلا أن الخطاب مختلف بحسب كل نفس ، وهنا يتجلى جانب من كمال علم الله تعالى وكمال عدله . فالنفس المنافقة شيء ، والكافرة شيء ، والمؤمنة شيء ، ولكل واحدة في آيات سورة البقرة الخطاب المؤثر فيها ، والمناسب لحالها . وقد انبعثت نفسي للبحث في خصائص النفس ، وبيان أنواعها ، وما تمتاز به كل واحدة منها ، لأمور منها :

١- استشعار رحمة الله تعالى بنا ، أن خلقنا مسلمين ، وهدانا للإسلام ، ووفقنا للطاعة . ومن ثمرة ذلك أن يعض المرء على هذه النعمة التي لا تساويها نعمة بالنواجذ ، فلا يفرط فيها ، ولا يتخلى عنها ، ويجتهد في شكر الله تعالى عليها .

٢- التعرف على جانب من حقائق كل نفس ، ودواعي الرحمة لِمَن آمن ، ومسببات العذاب لِمَن نافق ومَن كفر ، فإن النفس تنحرف وتزل ، ولكن المؤمنة الموحدة ترحم ويُغْفَر لها ، ويتضاعف عذاب المنافقة والكافرة عياذا بالله . فعُلم بذلك أن الانحراف والزلل – وإن كان محلاً للعذاب – إلا أنه يكون مع الإيمان أقل سوءاً ، إذ يطهرها العذاب سواء أكان في الدنيا أم كان في الآخرة ، ثم تنجو بعد ذلك بتوحيدها. ويكون الانحراف والزلل مع النفاق والكفر شديداً مغرقاً في الضلالة ، فلا تطهر بعذاب لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فتخلد في العذاب ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ ٢٦] .

ولتحقيق بغيتي بذلت جهدي في التعرف على دلائل آيات سورة البقرة التي

ذكرت فيها النفس ، وذلك بالبحث في مكنونات الألفاظ ، ودلائل السياق ، وتتبع اجتهادات العلماء في تفسير الآيات وبيان أحكامها .

وقد جاء البحث – بحمد الله تعالى – مشتملاً على ثلاثة مباحث :

الأول : تعريف النفس .

والثاني : خصائص النفس البشرية .

والثالث : أنواع النفس البشرية .

وأهم ما تجدر الإشارة إليه هو أني أعتمد القولَ المناسب لطبيعة الموضوع فيما يختص بالمسائل المختلف فيها أو التي ورد فيها أقوال متعددة ، وأشير إلى الأقوال الأخرى أو الخلاف في الحاشية .

هذا والله من وراء القصد ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

* * *

المبحث الأول : تعريف النفس :

التعريف اللغوي :

أصل النَّفَس في اللغة يدل على « خروج النسيم كيف كان ، من ريح أو غيرها »[1]. وتطلق النَّفْس على معان كثيرة منها :

١- الإنسان بروحه وجسده ، ذكراً كان أو أنثى . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر ٥٦]، ويندرج تحت هذا المعنى : تفسير النفس **بآدم** عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ [الأنعام ٩٨] . وتفسيرها **بالأم** في قوله تعالى : ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا ﴾ [النور ١٢]. وتفسيرها **بالجماعة** في قوله تعالى : ﴿ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [آل عمران ١٦٤]. وتفسيرها **بالأهل** في قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة ٥٤]. وتفسيرها **بالبعض** في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة ٨٥]. وتفسيرها بالأخ في قوله تعالى : ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [النور ٦١].

والمتتبع للخطاب القرآني يجده متوجهاً إلى هذا المعنى ، وإلى النفس بمعنى

---

* انظر مفصلاً : العين للفراهيدي ٧/٢٧٠- ٢٧١ . وتهذيب اللغة للأزهري ١٣/٧- ١٢ . والتصاريف لابن سلام ٤٨٨- ١٨٩ . والصحاح للجوهري ٣/٩٨٤- ٩٨٥ . ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/٤٦٠- ٤٦١. والفروق في اللغة للعسكري ٩٦- ٩٧ . والمخصص لابن سيدة ١/٦٢- ٦٣ . وأساس البلاغة للزمخشري ٤٦٦ . ولسان العرب لابن منظور ٦/٢٣٣ . وإعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ٨٦ . ونزهة الأعين النواظر لابن الجوزي ٢/١٩٢- ١٩٣ . وتهذيب إصلاح المنطق للتبريزي ١٥٤ .

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/٤٦٠ .

الروح الآتي بيانه . ولذا فإنهما موضوع البحث ومرتكزه .

٢- البخل والحسد . ومنه قول علي بن أبي طالب لأبي بكر رضي الله عنهما : « ولم نَنْفَس عليك خيراً ساقه الله إليك »[١] .

٣- الدَّم . ومنه قول إبراهيم النخعي : « ما ليس له نَفْسٌ سَائِلَةٌ فإنَّه لا يُنَجِّسُ الماءَ إذا مات فيه »[٢]. وقول الشاعر[٣] :

تسيل على حد الظبات   وليست على غير الظبات تسيل

وسمي الدم نفساً لخروج الروح بفقده .

٤- ذات الشيء وحقيقته وعينه . ومنه قولهم : نزلت بنَفْس الجبل . ونَفْس الجبل مقابلي .

٥- الروح الذي به حياة الجسد . ومنه قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر ٤٢] ، ومن شعرهم في ذلك[٤] :

كادت النفس أن تفيض عليه   إذ ثوى حشو ريطة وبرود

٦- العقل . وسميت النفس عقلاً لتحصيلها المعارف والعلوم ، وأهليتها لذلك . وبعض أهل اللغة يسميها : نفس التمييز .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٥٤٩/٤ برقم ٣٩٩٨ . ومسلم في صحيحه ١٣٨٠/٣ برقم ١٧٥٩ .

(٢) تفسير القرطبي ٣٦٩/١ .

(٣) البيت ينسب إلى السموأل ، وهو في ديوانه : ٩١ ، وكذلك ينسب إلى عبد الملك الحارثي ، وهو في ديوانه : ٨٩ .

(٤) نسبه ابن السيد في الاقتضاب ٣٨٩ إلى أبي زبيد الطائي في رثاء ابن أخت اللجلاج الحارثي ، ونسبه إليه أيضاً البغدادي في شرح أبيات المغني ٢٦/٨ . قلتُ : ولم يرد في قصيدة أبي زبيد الدالية المعروفة في ديوانه ، وقد ورد دون نسبة في أدب الكاتب ٣٠٦ ، وأورده في الخزانة ٣٤٨/٩ عرضاً دون نسبة أيضاً .

٧- العقوبة . وبه فسر بعضهم قوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران ٣٠]. وفيه نظر ، فالمراد بالنفس في هذه الآية وما شابهها ذات الله تعالى المتصفة بصفاته .

٨- ظرف مكان بمعنى : عند . وبه فسر بعضهم قوله عز وجل: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة ١١٦]، أي تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك. وفيه نظر فيما يختص بحق الله تبارك وتعالى ، فنفسه ذاته سبحانه. ولذا اعترض عليه ابن منظور فقال: « والأجود في ذلك قول ابن الأنباري: إِن النَّفْس هنا الغَيْبُ ، أَي تعلم غيبي ، لأَن النَّفْس لما كانت غائبة أُوقِعَتْ على الغَيْبِ ، ويشهد بصحة قوله في آخر الآية قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوب ﴾ كأَنه قال : تعلم غَيْبِي يا عَلاَّم الغُيُوب »[1].

٩- عين العائن . ومنه الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس » يعني العين[2] .

١٠- القلب . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم ٢٣] أي القلوب .

ومن معانيها كذلك : الأنفة والعزة . والبخل والحسد . والجسد. والدباغ . والرأي. والرُوع. والشق الذي في السهم . والعظمة والجلالة . واللبن . والماء ... وغير ذلك .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٢٣٤/٦ مادة (نفس) .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١٣٦/١ برقم ٣١١ . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠٦/٥ وقال : « رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، خلا طالب بن حبيب بن عمرو وهو ثقة ».

التعريف الاصطلاحي :

تعددت الأقوال وتباينت في تعريف النفس ، كلٌّ وفق مشربه ، وبيانها كما يأتي :

أولاً : تعريفات الفلاسفة :

عرف أرسطو النفس بأنها : « كمالٌ أولٌ لجسم طبيعي ذي حياة بالقوّة »[١] . وبه قال الحسين بن عبدالله بن سينا من بعد[٢]. ولما جاء نصير الدين الطوسي فَسَّر الكمال الأوّل بأنه : الشيء الذي يخرج من القوّة إلى الفعل بتمامه دفعةً ، ويجعل ذلك الشيء نوعاً غير ما كان قبل الحصول [٣].

وعرف أفلاطون النفس بأنها : « جوهر روحي قائم بذاته ، مستقل عن الجسم ، والجسم آلة له »[٤] .

وقال محمد أعلى التهانوي في تعريفها : « والنفس تطلق عند الحكماء بالاشتراك اللفظي على :

١- الجوهر المفارق عن المادة في ذاته دون فعله . وهو على قسمين : نفس فلكية ، ونفس إنسانية .

٢- وعلى ما ليس بمجرد ، بل قوة مادية ، وهو على قسمين أيضاً : نباتية ، ونفس حيوانية »[٥] .

---

(١) نقلاً عن : رسالة في حدود الأشياء ورسومها للكندي ١٦٥ . وموسوعة الفلسفة لعبدالرحمن بدوي ٥٠٥ .

(٢) انظر : النفس البشرية له ٣٣ ، ٩١ .

(٣) انظر : تلخيص المحصل له ٥٢١ .

(٤) نقلاً عن : فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية للزركان ٤٦٦ .

(٥) موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية له ١٣٩٧ .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن نظرية الجوهر في أصلها تقتضي الأزلية، ولكنها اختلفت نوعاً ما عند الفلاسفة الإسلاميين، فأصبحت تطلق على الجسم غير المرئي كما قال الراغب الأصفهاني [1].

ثانياً : تعريفات الصوفية :

يقول عبدالكريم بن هوازن القشيري : « نفس الشيء : وجوده. وعند القوم : ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجودَ ، ولا القالبَ الموضوع ، وإنما أرادوا بالنفس ما كان معلوماً من أوصاف العبد ، ومذموماً من أخلاقه وأفعاله »[2] .

وكلمات عبدالكريم الجيلاني في كتابه (الإنسان الكامل) تدور حول هذه الحدود والأوصاف ، ولكن المتأمل لفلسفته في حقيقة النفس يجدها عين عقيدة الاتّحاد [3].

إلا أن عبدالرزاق الكاشاني خرج عن السياق الغالب لدى الصوفية ، وجنح إلى مصطلح الفلاسفة ، فعرف النفس بأنها : « الجوهر اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة والإرادة »[4] .

ثالثاً : تعريفات أهل السنة ومن وافقهم :

أكثر الأئمة لا يفرقون بين الروح والنفس ، بل يرونهما اسمين مترادفين لمعنى واحد ، استدلالاً بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر ٢٧-٢٨] ، فالراجع الروح ، وسمي هنا نفساً، وبحديث الوادي حيث قال فيه بلال لرسول الله ﷺ : « أخذ بنفسي الذي أخذ – بأبي أنت

(١) انظر : مبادئ الفلسفة لرابوبرت ١٥٢- ١٥٣ . والمفردات للراغب الأصفهاني ٩٣- ٩٤ .

(٢) الرسالة القشيرية له ٧٥ . وانظر : كشف المحجوب للهجويري ٢ : ٤٢٧ .

(٣) انظر : الإنسان الكامل له ٣٦ .

(٤) اصطلاحات الصوفيه له ٦٢ .

وأمي يارسول الله - بنفسك »، فأجاب ﷺ : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها حين شاء ... » الحديث[1] . ولذا فما أثر عنهم من تعريفات فإنما هو للروح والنفس على حدّ سواء .

وقد وقف أهل السنة في الجملة من تعريف النفس موقفين :

أحدهما : السكوت عن ذلك وعدم الخوض فيه ، لأن حقيقة التعريف هنا بحثٌ في الماهية ، وهي من الغيوب التي استأثر الله تعالى بعلمها ، قال سبحانه : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء ٨٥] ، فلا سبيل إلى تحديد ماهيّتها[2] .

والثاني : تعريفها ، ومما أثر عنهم في ذلك :

قول يحيى بن شرف النووي : « والأصح عند أصحابنا أن الروح أجسام لطيفة متخللة في البدن ، فإذا فارقته مات »[3] .

وقول إبراهيم بن عمر البقاعي : « جسم لطيف سار في البدن كماء الورد في الورد ، على الصحيح عند أهل السنة »[4] .

وهنالك أقوال أخرى لعبدالملك بن عبدالله الجويني ، وأبي المظفر السمعاني ، وابن القيم محمد ابن أبي بكر ، وكلها تدور حول هذه الحدود[5] . وهذا التصوير

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١١٦ برقم ١٢٧ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ١٢/٥٤٣- ٥٤٤ . والتمهيد لابن عبدالبر ٥/٢٤٦ . ونزهة الأعين النواظر لابن الجوزي ٢/١٩١ . والتسهيل لابن جزي ٣٨٢ و ٦٢٦ .

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم ١٣/٣٣ .

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٤ : ٤٢٠ .

(٥) انظر : تفسير القرآن للسمعاني ٣/٢٧٤ . والروح لابن القيم ٤٢٢ . وشرح الصدور للسيوطي ٤٣١ .

نابع – فيما يظهر لي – من اعتقاد السلف بانطباع النفس في الجسد ، وبأن الأرواح تأخذ هيئة أجسادها ، فالنبي ﷺ رأى موسى عليه السلام في السماء السابعة ووصفه ، وتلك روحه ، لأن جسده في الأرض مدفون [1]. بالإضافة إلى خصائص النفس ووظائفها .

وما قاله علي بن أحمد بن حزم من أن : « النفس جسم طويل عريض عميق، ذات مكان ، عاقلة ، مصرفة للجسد »[2] . ففيه موافقة لمذهب السلف من حيث الجسمية ، ومخالفة من جهة أخرى حينما قال بالتصريف ، وهذا قول الفلاسفة ، وأما مذهب السلف كما تقدم فهو الانطباع .

ولما كان البحث معنياً بالنظر في دلالات الخطاب القرآني ؛ فلعلي أتوقف هنا قليلاً ، فعند تدبر الآيات الكريمة نجدها حينما تخاطب النفس تعني الإنسان بروحه وجسده معاً ، حتى تلك الآيات الكريمة التي استدل بها العلماء على أن النفس بمعنى الروح تجعل للبدن نوع اشتراك واتصال كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ الآية. [الأنعام ٩٣] فالبسط هو الضرب[3] المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ الآية. [الأنفال ٥٠] . وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر ٢٧- ٣٠] ، فالوجه والدبر في آية الأنفال

(١) انظر : الروح لابن القيم ٢٦٦ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل له ٥ : ٢٠٢ .

(٣) انظر : زاد المسير لابن الجوزي ٣/٨٧ . وهنالك أقوال أخرى غير ما ذكر .

بعض بدن الإنسان ، وأما آيات سورة الفجر ؛ فلا مرية في انتفاع البدن برضوان الله تعالى ، وبخاصة حين دخول الجنة بعد البعث[1] .

ويعزز هذا ما ورد في اللغة من تسميات للنفس – سيأتي ذكرها - ، فإن الارتباط بين الروح والبدن جلي في دلالات كل اسم ، حيث يصور الحالة المشاهدة للإنسان بروحه وبدنه . والله أعلم .

أسماء النفس البشرية[2] :

يذكر أهل اللغة للنفس أسماء عدة هي :

١- الحَوْباء ، وجمعه حوباوات ، وربما سميت بذلك لقربها من الإثم ، أو لقربها من التوبة ، أو لحاجتها لمثيلاتها من بني جنسها .

٢- الكَذوب و الكَذوبة ، واقتصر جماعة على الأول .

٣- النَّقِيْبَة ، يقال : رجل ميمون النقيبة أي مبارك النفس .

٤- الشَّراشِر ، يُقالُ: أَلْقَى عليّ شَراشِرَهُ ، أي: أَلْقَى عليّ نَفْسَه حرصاً . كما يطلق عند ميل النفس إلى الهوى والغي .

٥- النَّسِيس ، ويراد به بقية الروح ، لذا لا تسمى النفس بذلك إلا عند الاحتضار . فأصل النَّسِّ السوق ، ويقال : فلان في السَّوْق إذا عالج النزع .

٦- الحُشاشَة ، وهي بقية الروح، أو الرمق الأخير في المريض أو الجريح .

---

(١) وأشير هنا إلى ما قد يلحظ على البدن من علائم الرضوان عند الاحتضار ، كرشح الجبين ، وإشراق الوجه

(٢) انظر : التلخيص في معرفة أسماء الأشياء للعسكري ١/٨٥- ٨٦. والغريب المصنف للقاسم بن سلام ٥٦.

٧- القَتال ، قيل هي النفس ، وقيل بقية النفس .

٨- القَرُون والقَرِينة .

٩- الجِرْوَة ، وتسمى بذلك إذا اطمأنت النفس ، أو وطنها المرء على شيءٍ ما وصَبَرَ له .

١٠- الجِرِشَّى .

* * *

المبحث الثاني :خصائص النفس البشرية :

أصل الخصوصية : التفرد ، يقال : اختص فلان بالأمر وتخصص له ، إذا انفرد به . ويقول الجرجاني : « الخصوص : أحدية كل شيء عن كل شيء بتعيينه . فلكل شيء وحدة تخصه »[1] .

فالخصائص إذاً المكونات والعناصر التي تجعل من الشيء في الجملة متفرداً عن غيره من الأشياء. وإذا تأملنا الآيات الكريمة المخاطبة للنفس في سورة البقرة نجدها تنبئ تصريحاً أو إيماءً عن جانب من خصائص النفس البشرية وهي :

أولاً : تعدد الذوات :

فإذا كانت النفس البشرية جنساً واحداً ، فلا يعني ذلك اتحاد الذوات ، بل كل إنسان يختص بروح قائم بذاته ، خلقه الله سبحانه وتعالى له ، وجعلها مختلفة عما لدى الآخرين ، كما أنه يختص بجسد مختلف عن الأجساد الأخرى .

ومن دلالاته ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة ٤٨ و١٢٣] ، فليست الأنفس واحدة ، بل هذه نفس وتلك نفس ، وكل واحدة تمتاز عن الأخرى بعلومها وقدراتها وسعيها ، ومعلوم أن الأنفس ليست سواسية في ذلك ، ولذا فإن كل نفس ستتحمل المسؤولية تبعاً لاستعداداتها ولمقدار الأمانة التي تحملتها .

بالإضافة إلى صيغة الإفراد والتنكير المسبوقة بألفاظ العموم ، فكما أنها أفادت اتحاد الجنس ، فإنها في الوقت ذاته تفيد اختلاف الذوات ، فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ [البقرة ٢٨١] يدل على اختلاف الأنفس في

---

(١) التعريفات له ٩٨ .

الكسب ، وهو ما لا يخفى على العامة فضلاً عن العقلاء ، ومن ثم تكرَّم النفس أو تؤاخذ بحسب سعيها وكسبها ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر ٣٨] .

بل إن التشبيه في قوله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان ٢٨] قاطع بتعدد ذوات الأنفس ، ولو كانت واحدة لما جاز التشبيه هنا ، ولذا كان دليلاً بليغاً على كمال علم الله تعالى وكمال قدرته ، فلا تتشابه عليه الأنفس ولا الأجساد رغم كثرتها .

وبإثبات هذه الخصيصة تبطل الأقاويل المنقولة عن بعض الفلاسفة وأهل التناسخ . ومن تلك الأقوال :

أ- ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من أن النفس البشرية واحدة بالشخص في جميع أشخاص الناس يشتركون فيها .

ومرادهم بالنفس الروح مجرداً عن البدن ، وليست هذه المقولة إلا امتداداً لنظرية الفيض التي يمثلون لها بشعاع الشمس « يشرق على موضوعات مختلفة فيكثِّره ، فيكثر بالنسبة إليها ، وهو واحد الجوهر والحقيقة والشخص في نفسه » .

ولا شك عند أهل السنة والجماعة ومن وافقهم في بطلان هذه النظرية لأنها تعنى قدم (أزلية) النفس . وربما تشبث بعض فلاسفة العصر الإسلامي لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ الآية. [الحجر ٢٩] ، ولا وجه لهم فيها البتة ، لأن الإضافة هنا من باب المُلْك والتشريف ،لا الصفة والموصوف .

كما أن نظرية الفيض برمتها تفتقر للبرهان الصحيح ، إذ كل صيغ إثباتها مبنية على التخيُّل والفَرض. والإنسان إذا لم يشهد الحدث، ولم يخبر به فمن أين له

العلم به؟! قال تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف ٥١] ، والنفس هنا : الإنسان بروحه وجسده .

ثم لو كانت النفس واحدة بالشخص في جميع الأشخاص ؛ لوجب تساوي الأفعال ، ولفقد الاختصاص والتميز . فلابد أن يفرح الجميع معاً، أو يغتموا معاً، أو يَجْهَلوا معاً ، أو يَعْلَموا معاً ... ونحو ذلك ، وهوما تردُّه بداهة العقول ، والمشاهدة الحسية .

ب- وذهبت طائفة أخرى من الفلاسفة إلى القول بتعدد النفوس في البدن الواحد . ولا اتفاق بينهم على صورته :

فالفارابي يقرر تَكَوُّن النفوس من أجزاء حدثت تباعاً : النفس الغاذية ، فالحاسة ، فالنزوعية ، فالمتخيلة ، فالناطقة . ثم يصيرها نفساً واحدة فيقول : « فالغاذية الرئيسة شبه المادة للقوة الحاسة الرئيسة ، والحاسة صورة في الغاذية . والحاسة الرئيسة شبه مادة للمتخيلة ، والمتخيلة صورة في الحاسة الرئيسة . والمتخيلة الرئيسة مادة للناطقة الرئيسة ، والناطقة صورة في المتخيلة ، وليست مادة لقوى أخرى ، فهي صورة لكل صورة تقدمتها . وأما النزوعية فإنها تابعة للحاسة الرئيسة والمتخيلة والناطقة، على جهة ما توجد الحرارة في النار تابعة لما تتجوهر به »[1] .

ويقسم غيره النفوس إلى ثلاثة : **نباتية** (نامية) وظيفتها الغذاء والتربية والتوليد . **وحيوانية** ، لها أقسام تتفرع عن بعضها ، وتتكون في مجملها من : القوة الخيالية ،

(١) كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ٧٠ و ٧٤ .

والقوة المفكرة ، والقوة النزوعية الشهوانية، والقوة النزوعية الغضبية. **وإنسانية (ناطقة)** ، وتتكون من القوة العالمة ، والقوة العاملة [١].

وهذه التقسيمات وصف طبي شامل لوظائف النفس وأجزاء البدن . وبغض الطرف عن اتفاقها مع المعطيات الحديثة للطب أو اختلافها معه ، فإنها بهذا الطرح لا تفيد علماً فيما ذهبوا إليه من تجزؤ النفس البشرية ثم اندماجها في مظهر النفس الواحدة . فالدليل الشرعي يتحدث عن نشوء البدن أولاً ، في خلق آدم عليه السلام ، وعند تخلّق الجنين في بطن أمه ، ثم تنفخ فيه الروح ، فتتكون النفس البشرية من الروح والبدن . فالتجزّؤ عار عن الاستدلال الشرعي ، ولا يسعف فيه النظر العقلي ، لأن جانباً من النفس البشرية – أعني الروح – خفي عن علم الإنسان ، وقد اختص الله تعالى بعلمه .

ولو تفكر الإنسان بغير طريقة هؤلاء ، وتأمل في مجمل الآيات الكريمة المتكلمة عن النفس ، واستحضر في قلبه كمال علم الله تعالى وكمال قدرته ؛ لاستغنى عن كل ذلك التكلف ، ولجزم بأن النفس البشرية واحدة ، متكاملة الوظائف والقدرات . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وقد قال طائفة من المتفلسفة الأطباء إن النفوس ثلاثة : نباتية محلها الكبد ، وحيوانية محلها القلب ، وناطقية محلها الدماغ . وهذا إن أرادوا به أنها ثلاثة قوى تتعلق بهذه الأعضاء فهذا مسلم. وإن أرادوا أنها ثلاثة أعيان قائمة بأنفسها فهذا غلط بيّن »[٢] .

ج- وأسوأ الجميع : القول بالتناسخ ، وهو انتقال الروح عند الموت من الجسد الذي كان فيه إلى جسد آخر .

---

(١) انظر : رسائل إخوان الصفا ٢/٣٨٧ . وتهافت الفلاسفة للغزالي ٢٥٢- ٢٥٦.

(٢) رسالة في العقل والروح له ٤٤ .

وأقوال التناسخية متضاربة ، فمنهم من يحصر التناسخ في عالم الإنس ، ومنهم من يجيز التناسخ بين الإنس والدواب ، وجوز بعضهم انتقال الروح إلى الصور الحسنة والجميلة[1] .

وليس هذا موطن الحديث عن مذاهبهم ، إنما القصد بيان مخالفتهم لما تقرر من اختصاص الروح والجسد كل منهما بالآخر .

وإنما كان الأسوأ من بين الأقوال المتقدمة ؛ لأن فيه تطاولاً على الربّ تبارك وتعالى المتفرد بالخلق والتدبير والتصريف . فهؤلاء يمنعون تجدد الخلق ، لاعتقادهم بالدورية ، وأن الخلق تكامل وجودهم في الزمن الأول، ويتجدد ظهورهم على نحو دوري في الأزمنة التالية لتحصيل النعيم أو العذاب ، أو التخلص من شوائب الضلال ... أو غير ذلك . ويتحكمون في كيفية تصريف الكون ، بزعمهم أبديته ، وتناسخ الأرواح فيه بلا انتهاء . والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ [هود ١٠٧] ، ويقول سبحانه : ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[النحل ٨] . فهذا وجه شرعي يبطل القول بالتناسخ ، بالإضافة إلى ما تقرر في دلالات الخطاب القرآني من اختصاص كلٌ من الروح والنفس ببعضهما.

كما تأباه العقول السليمة ، فالروح حين اتصاله بالبدن يكتسب علوما ومعارف وأعمالاً كثيرة ، فإذا انتقل – كما يزعمون - إلى جسد آخر فلابدّ له من أحد أمرين : إما أن يفقد علومه كلها ، وإما أن تبقى معه .

فإن قيل : يفقدها كلها ، فعلام تنعّم الأبدان التي انتقلت إليها أرواح الأخيار ؟ وبأي ذنب تعذب الأبدان التي انتقلت إليها أرواح الضُّلال ؟ بل كيف عرف الروح

---

(١) انظر : الفرق بين الفرق لعبدالقاهر ٢٥٣ وما بعدها .

أنه كان في جسد آخر غير هذا الجسد الذي هو فيه ؟

وإن قيل : تبقى معارفه وأعماله ، وجب أن تظهر تلك المعارف على الطفل من حين ولادته ، وهو منتف شرعاً بقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل ٧٨] ، وهو المشاهد المعلوم من أحوال أطفال بني آدم جميعاً .

ويجب كذلك أن تتساوى البهائم مع الإنس في تحصيل المعارف والعلوم لأنهم يُجَوِّزون انتقال روح الآدمي إلى الحيوان ، ولم يقل بهذا عاقل من البشر .

وينبغي أن يستحضر الإنسان شيئاً من المعارف التي حصّلها في الأزمان الغابرة . ولكن شيئاً من ذلك لم يقع ، ومن ادّعاه فقد كذب .

ويقال هنا أيضاً : إن كان أهل التناسخ يريدون لمعتقدهم تبريراً فيلزمهم إجراء استقراء للأزمنة المتقدمة ، لإثبات تساوي أعداد الخليقة في كل حقبة زمنية مع ما بعدها . وهذا منقوض بمحدودية علم الإنسان .

كما يلزمهم إجراء استقراء آخر لبيان تساوي عدد المواليد والوفيات بين مخلوقات الزمن الواحد . وهو منقوض أيضاً بالواقع المدرك ، فلا تساوي بينهما .

ثانياً : استعداد النفس للمتضادات :

فللنفس استعداد ذاتي للخير وللشر معاً ، والآيات الكريمة في سورة البقرة تظهر هذه الخصيصة من جانبين :

الأول : تنوع الخطاب القرآني للنفس ،فتارة تخاطب النفس وتوصف بالمخادعة كما في قوله تعالى : ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة ٩] ، وتارة تخاطب وتوصف بالظلم كما في قوله

تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ الآية . [البقرة ٥٤] ، وتخاطب في موطن آخر فتمدح بجهادها كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة ٢٠٧] .

والثاني : تكليف النفس ، فتؤمر النفس الكافرة بالإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة ٤٤]، فقد كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بالتمسك بالتوراة والعمل بما فيها ، ويخالفون في السر ما يأمرون الناس به في العلن ، وقيل : إن طائفة من اليهود كانت تسر لقراباتهم من المسلمين بالمصاهرة أو الرضاع أن اثبتوا على دينكم وما أنتم عليه فإنه الحق ، ولا يؤمنون . فذمهم الله تعالى على صنيعهم ذاك ، فمن أمر بالبر فليكن أحرص الناس عليه ، وأشدهم مسارعة إليه[1] .

وتؤمر النفس المخطئة بالتوبة كما في قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ [البقرة ١٨٧] ، والمراد بـ : تختانون : أي تخونون أنفسكم بفعل ما حُرم عليكم ، ونسبت الخيانة إلى النفس لعود الضرر عليها ، وقد كان ذلك أول ما فرض صيام شهر رمضان قبل أن تنسخ الآية ، فكان المسلمون إذا صلوا العشاء حرم عليهم الطعام والنساء ، فوقع بعض الصحابة في ذلك ، ثم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معتذرين ، فقبل الله تعالى توبتهم ، وخفف عن المسلمين بنسخ هذه الآية[2] .

---

(١) انظر : زاد المسير لابن الجوزي ٧٥/١ . والدر المنثور للسيوطي ١٥٦/١ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٣١٥/٢ . وزاد المسير لابن الجوزي ١٩٢/١ . وتفسير ابن كثير ٢٢١/١ .

وتحذير النفس الصالحة من المعصية كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٣٥] ، فهذا إرشاد من الله تبارك وتعالى للمسلمين كي يضمروا في أنفسهم الخير والطاعة ، وتحذير بالغ ووعيد شديد لمن يضمر الشر والمخالفة في نفسه وبخاصة في أمور النساء . دون تيئيس أو تقنيط من رحمة الله تعالى ومغفرته لمن أراد أن يتوب[١] .

ولولا الاستعداد الذاتي للنفس للتحول من الشر إلى الخير لما خوطبت بذلك . ويأتي قول الله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس ٧- ٨] ليشير ضمنا إلى هذه الخصيصة، فجبلة النفس التي خلقت عليها تمكنها من التقوى حال الاهتداء ، ومن الفجور حال الضلال .

وتجدر الإشارة إلى الفرق البيِّن بين الاستعداد الذاتي للمتضادات ، وبين فعل الضدين في آن واحد ، فالاستعداد الذاتي قائم كما تقدم ، وهذا من عجيب خلق الله تعالى وإبداعه . وأما الفعل فغير ممكن ، إذ لا يمكن للمرء أن يجمع في قلبه بين الإيمان والكفر ، ولا أن يعقل ولا يعقل في آن واحد ، فإما هذا وإما ذاك ، وفي قول رسول الله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن »[٢] تصوير لتلك الحال ، فالإيمان عمل القلب ، والفجور كذلك عمل القلب قبل أن يكون فعل الجوارح ،

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢٨٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٨٧٥/٢ برقم ٢٣٤٣ واللفظ له . ومسلم في صحيحه ٧٦/١ برقم ٥٧ . وعبدالرزاق في مصنفه ٤١٤/٧ برقم ١٣٦٨٠ وزاد في آخره : « وإذا اعتزل خطيئته رجع إليه الإيمان ».

فإذا زاول المرء الفجور امتلأ القلب به ، وغُيِّب عنه الإيمان إلى حين ، لعجز القلب عن الجمع بينهما ، فالتقوى والفجور ضدان لا يجتمعان ، إن وجد أحدهما زال الآخر .

ثالثاً : محدودية الوسع :

الوُسْع في اللغة يدل على خلاف الضيق ، ويعني القدرة والطاقة . واستعير للنفس للدلالة على أن لها حداً تنتهي إليه ، كالظرف يتسع لمقدار معين ، فإن زيد عليه تلف[1] .

والخطاب القرآني في سورة البقرة يذكر هذه الخصيصة في موضعين : **أولهما** : في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ الآية. [البقرة ٢٣٣] . والوسع هنا قدرة ذات اليد ، فلا يكلف المنفق ما يحرجه ويثقل كاهله . أو لا يكلف الغني بما يعد إسرافاً وتبذيراً ، كما لا يقتّر على المرأة ويضيّق عليها [2].

والثاني : قوله سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة ٢٨٦] . وفيه تنبيه إلى رحمة الله تعالى بعباده ولطفه بهم ، ويظهر من جانبين :

الجانب الأول : عفوه سبحانه وتعالى عن حديث النفس، لأن الإنسان لا

(١) انظر : تاج العروس للزبيدي ٥/٥٤٢ مادة (وسع) . والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢/٤٣٣ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٣/١٦٤ . وزاد المسير لابن الجوزي ١/٢٧٢ . .

يملكه ولا يقدر على ضبطه . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة ٢٨٤] قال : فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ، ثم بركوا على الركب ، فقالوا : أي رسول الله ؛ كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة . وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها . قال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم ، فأنزل الله في إثرها : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة ٢٨٥] . فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال : نعم . ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال : نعم . ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ قال : نعم . ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة ٢٨٦] قال : نعم »(١) .

والجانب الثاني : توقف التكليف عند حدود الوسع ، فالله تعالى لم يكلف

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١١٥ برقم ١٢٥ .

العباد إلا ما يقدرون عليه ، سواء كانت تلك القدرة عقلية أم قولية أم فعلية ، فإذا ما عجزوا عن شيءٍ تجاوز الرب تبارك وتعالى لهم عنه . وههنا ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : حدود المسؤولية الشرعية ، فقوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ الآية. [البقرة ٢٨٦] ، يدل على أن المسؤولية في الأصل شخصية محضة . ولكن تتسع هذه المسؤولية كلما اتسعت العلاقة السببية ، كأن يبتدع الإنسان عملاً يصلح للاقتداء به تحمل مسؤولية اقتداء الآخرين به كما قال النبي ﷺ: « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[١] . أو يكون له دور في الحض على عملٍ ما ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل٢٥] . أو يكون سلبياً مع قدرته على التأثير والتغيير ، قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة ٧٨- ٧٩] . ويقول المصطفى ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[٢] .

والمسألة الثانية : أنواع القدرة والاستطاعة ، وعامة أهل السنة والجماعة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/٧٠٥ برقم ١٠١٧ ، و ٤/٢٠٥٩ بالرقم نفسه .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١/٦٩ برقم ٤٩ .

يقسمون القدرة إلى قسمين(١) :

أ- القدرة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات والأسباب (استطاعة الآلات والأسباب) ، وهي مناط التكليف وجوداً وعدماً ، ومن الأدلة عليه قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ الآية. [البقرة ١٨٥] .

ب- القدرة المقارنة للفعل (استطاعة التوفيق) ، ويراد بها أن الله تعالى خص المؤمن بنعمة دينية دون الكافر ، فأعانه على الإيمان فآمن ، ولم يعن الكافر فلم يؤمن . ومن الأدلة عليه قوله تعالى – في حق المؤمنين – : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة ١٠٥] ، وقال سبحانه – في حق الكَفَرَة – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة ٦- ٧] . ولا يتأثر التكليف بهذه القدرة وجوداً وعدما ، فإن الله تعالى يكلف بالأمر من لا يريده ، لأنه ليس عاجزاً في الحقيقة . ولا يكلف بالأمر من لو أراده لعجز عنه .

المسألة الثالثة : ما لا يطاق ، والعلماء يفسرونه بأمرين(٢) :

أ- ما لا يطاق للعجز عنه ، فهذا لا يكلف الله به أحداً ، وهو المراد من قوله تعالى :﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ الآية. [البقرة ٢٨٦] . ومن صوره أن

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ٢/٦٣٥ ، ٦٣٧ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ٢/٦٣٩ .

يكون العجز مؤقتاً ، فإذا زال العجز وقع التكليف ، كما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل »(1) . أو يكون العجز دائماً ، كالمقعد لا يستطيع القيام ، والمريض بما لا يرجى برؤه لا يستطيع الصيام ولا الحج ، فيعدل حينئذٍ إلى الرخصة .

ب- ما لا يطاق للاشتغال بضده ، مثل الكافر ، فإنه لا يطيق الإيمان لاشتغاله بضده وهو الكفر . فهذا غير عاجز في الحقيقة ، لذا يقع عليه التكليف ، ويتوجه إليه الأمر ، ولا يعذر بذلك الاشتغال .

رابعاً : الإرادة والاختيار :

فقد خلق الله تعالى هذه النفس البشرية قادرة على الاختيار ، بحيث تفاضل بين الأمور والأشياء، وتعزلها عن بعضها ، وتفصل بينها ، وتطلب ما هو خيراً لها في تقديرها ، مع أنه قد لا يكون خيراً عند الآخرين . وتفعل النفس البشرية

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٣٢ برقم ١٤٢٣ ، وأبوداود في سننه ٤/١٤١ برقم ٤٤٠٣ كلاهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً . وقال الترمذي : « حديث علي حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وقد روي وجهً عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر بعضهم : وعن الغلام حتى يحتلم . ولا نعرف للحسن سماعا من علي بن أبي طالب . وقد روي هذا الحديث عن عطاء بن السائب عن أبي ظبيان عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو هذا الحديث . ورواه الأعمش عن أبي ظبيان عن بن عباس عن علي موقوفا ، ولم يرفعه . والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم » . ثم قال : « قد كان الحسن في زمان علي ، وقد أدركه ، ولكنا لا نعرف له سماعا منه . وأبو ظبيان اسمه حصين بن جندب » . وأخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٠١٩ تعليقاً من قول علي رضي الله عنه .

وأخرجه أبوداود في سننه ٤/١٣٩ برقم ٤٣٩٨ ، والدارمي في سننه ٢/٢٢٥ برقم ٢٢٩٦ ، وابن ماجه في سننه ١/٦٥٨ برقم ٢٠٤١ جميعهم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً بألفاظ متقاربة .

ذلك بقدرة حقيقية تامة ، وبلا إكراه .

ودليل هذه الخصيصة قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة ٢٨١] ، وقوله سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ الآية. [البقرة ٢٨٦] ، والأقوال في الكسب والاكتساب متعددة : فمن العلماء من يجعلهما بمعنى واحد ، ويستدلون لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ الآية. [الأنعام ١٦٤] وقوله سبحانه : ﴿ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر ٢٤] فقد جعل الكسب في الحسنات كما جعله في السيئات . وقيل : الكسب فيما أخذه الإنسان لنفسه ولغيره، والاكتساب يختص بما استفاده لنفسه . وقيل : أراد بالكسب : العمل الصالح. وبالاكتساب : العمل السيئ . وقال ابن القيم محمد بن أبي بكر : « الاكتساب افتعال يستدعي اهتماماً وتعملاً واجتهاداً . وأما الكسب فيصح بأدنى شيء . ففي جانب الفضل جعل لها ما فيه أدنى سعي ، وفي جانب العدل لم يجعل عليها إلا ما لها فيه اجتهاد واهتمام »[١] .

والخطاب القرآني الكريم في هاتين الآيتين ومثيلاتهما ينسب الطلب والسعي (الكسب) للنفس ، ويرتب عليه نوع الجزاء الذي تستحقه النفس وفقاً لما كسبت ، مما يدل على أنه فعل على الحقيقة لا على المجاز . ولذا فإن أهل السنة والجماعة ومن وافقهم يثبتون للإنسان إرادة ومشيئة تجعلانه فاعلاً ومختاراً لفعله ، ومن ثم يصبح مسؤولاً ، ويستحق الجزاء وفقاً لفعله واختياره . ولا يخرج في ذلك كله عن إرادة الله تعالى ومشيئته المطلقة .

---

(١) شفاء العليل له ٢٣١ .

وهم بذلك وسط بين القدرية والجبرية [1]:

فالقَدَرية بالغوا في فاعليّة الإنسان ، فمحّضوا النظر إلى الأفعال ، وجعلوا وقوع الفعل الاختياري من الإنسان بإيجاده ومشيئته ، من غير أن يكون الله شاءه أو أوجده .

والجَبْرِية بالغوا في الجبر ، ومحضوا النظر إلى الخلق ، فجعلوا أفعال الإنسان كلها لله تعالى ، والإنسان مضطر مجبر عليها ، كحركات المرتعش ، وحركات الأشجار ، وإنما أضيفت إلى الإنسان من باب المجاز .

والحق كما قال ابن القيم : « أن الربّ سبحانه فاعل غير منفعل ، والعبد فاعل ومُنْفَعل ، وهو في فاعليته منفعل للفاعل الذي لا ينفعل بوجه »[2] .

ويذكر بعض الصوفية خصيصة للنفس البشرية ، وهي التوسط بين مادتي الروح والبدن ، ولذا يرون بأن النفس هي المشار إليها في القرآن الكريم بالشجرة الزيتونة ، بكونها مباركة ، لا شرقية ولا غربية ، ويعللون ذلك « بازدياد رتبة الإنسان وتزكيته بها ، ولكونها ليست من شرق عالم الأرواح المجرد ، ولا من غرب عالم الإنسان الكثيف ، بل متوسط بينهما ، أي بين الكثيف واللطيف »[3] .

ولست أرى هذه الخصيصة ولا تعليلها إلا من باب التفسير الإشاري المشتهر استخدامه عند القوم، وهو تفسير لا ينضبط، ولا تثبته حجة. وإلا فأين الدليل على تمييز النفس عن الروح والجسد؟ وهل يقدر أحد على الإتيان به ؟ كما أن

---

(١) انظر : شفاء العليل لابن القيم ٢٣١ وما بعده و ٢٥٢ وما بعده . وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ٦٣٩/٢- ٩٤٠ .

(٢) شفاء العليل له ٢٥٢ .

(٣) اصطلاحات الصوفيه للكاشاني ٦٢ .

التعليل بتزكية النفس وارتفاع رتبته بالنفس لا يستقيم مع دلائل الخطاب القرآني الذي دل على تأرجح النفس بين الفضيلة والرذيلة – وسيأتي تفصيل ذلك في الحديث عن أنواعها قريباً – .

وأما مضرب المثل في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور ٣٥] فللعلماء فيه أقوال ثلاثة : أولها لنور نبينا محمد ﷺ ، والثاني لنور القرآن الكريم . والثالث لنور الإيمان [1].

* * *

(١) انظر : تفسير القرطبي ١٢/٢٥٩. وزاد المسير لابن الجوزي ٦/٤٤- ٤٥. والدرالمنثور للسيوطي ٦/٩٧.

المبحث الثالث :أنواع النفس البشرية :

تختلف طريقة تقسيم النفس البشرية إلى أنواع وفقاً للحيثية التي ينظر إلى النفس من خلالها ، فمن نظر إلى طبيعة النفس البشرية جعل النفس المطمئنة والنفس اللوامة والنفس الأمارة بالسوء المذكورة في القرآن الكريم أنواعاً للنفس البشرية .

ومَنْ نَظَر إلى الخطاب القرآني الكريم في سورة البقرة وجده يجلّي تقسيماً آخر للنفس البشرية ، إذ يخاطب النفوس وفقاً لأعمالها واعتقاداتها ، فنجده ينبهنا إلى النفس المنافقة ، والنفس الكافرة ، والنفس المؤمنة .

ولأن الخطاب القرآني في سورة البقرة هو مجال البحث وموضوعه ، فستدرس – فيما يأتي - التقسيمات المنبثقة عنه ، بالمقارنة مع طبيعة كل نفس من تلك الأنفس ، علنا نستحوذ على النظرتين، ونحصل وصفاً شاملاً لكل نفس – قدر الطاقة والجهد - والله المستعان .

أولاً : الخطاب القرآني للنفس المنافقة :

النَفَق في اللغة : سرب في الأرض مستتر يمكن الخروج منه إلى مكان ما . والنافقاء : مخرج ثانٍ خفي يخرج منه اليربوع إذا دهمه خطر. ومنه اشتق النفاق، لأن المنافق يدخل في الإسلام علانية ، ويخرج منه خفية [(١)].

وقد عرف المنافق اصطلاحاً بأنه : « الذي يستر كفره ويظهر إيمانه »[(٢)] . وقال الشريف علي الجرجاني : « النفاق : إظهار الإيمان باللسان ، وكتمان الكفر بالقلب »[(٣)] .

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤٥٥/٥ . وتاج العروس للزبيدي ٧٩/٧ مادة (نفق) .

(٢) النهاية لابن الأثير ٩٨/٥ .

(٣) التعريفات له ٢٤٥ .

وباستشراف هذه المعاني والتعريفات مع دلالات الخطاب القرآني الكريم للنفس المنافقة نستشف حقيقتها ، ونجد أنها قد ميِّزت عن سائر الأنفس بالمخادعة ومرض القلوب في آن واحد ، قال تعالى : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ [البقرة ٩- ١٠] . وأصل الخداع : الإخفاء ، و يستخدم عند إرادة المكروه بالغير ، أو إخفاء الحقيقة عنه . ويحصل خداع النفس بأن يقوم المرء بمحض إرادته على منع وصول الحقيقة إلى عقله :

١- بتركيز النظر في الباطل دون الحق ، فيستحوذ الباطل على عقله وقلبه ، ويسد منافذ نور الحق إليهما ، ولذا قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج ٤٦] .

٢- أو بالإغراق في الباطل ، فيستحسن ما هو عليه من باطل ، بل يراه في عينه حقاً ، ويرى الحق باطلاً ، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا ﴾ الآية. [فاطر ٨] ولذا يهمل جميع دلائل الحق ، ولا يعمل عقله في تدبرها ، لأنها في نظره واهية متلاشية ، ويزداد إصراراً على باطله ، فيصدق فيه قول الله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء ٨٢] .

وأما المرض ، فيدل في اللغة[1] على السُقم ، ضدّ الصحة ، وهو كل شيء يخرج به الإنسان عن حدِّ الصحة . ويكون جسمياً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى

(١) انظر : الصحاح للجوهري ١١٠٦/٣ مادة (مرض) . ولسان العرب لابن منظور ٢٣١/٧ مادة (مرض). والمفردات للراغب ٤٦٦.

ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ الآية. [النور ٦١] ، ومعنوياً ويقصد به الرذائل الخلقية ومنها النفاق ، كما في آية المنافقين الآنفة . ومحله قلب الإنسان ، وما صار قلب المنافق مريضاً إلا لكونه يمتنع بسببه عن الفضائل ، كالمرض البدني يمنع الجسم من التصرف الكامل . أو لميل النفس إلى الاعتقادات الرديئة الفاسدة كميل البدن المريض إلى الأشياء المضرة ، ولكون تلك الاعتقادات متصورة بصورة المرض، كقول رسول الله ﷺ : « وأيّ داءٍ أدوأ من البخل؟ »[1] الحديث.

وبالمخادعة ومرض القلوب أحكمت أُطُر الباطل على النفس المنافقة ، وامتنع عنها الحق فلا تقبله ولا تفهمه ولا تنظر فيه ، ولذا تجد نفسها مُصْلِحة مع أنها مُفْسِدة كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة ١١]. والفساد هنا : الكفر وموالاة الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم[2]. ورأت الإيمان واتباع النبي ﷺ سفاهة وخِفَّة في العقول ، كما قال تعالى – مخبراً عنهم – : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ١٣] .

فلفرط تركيز النفس المنافقة على الباطل وإغراقها فيه أقبلت على الفساد الذي ينبغي تركه لما فيه من مضرّة . وتركت الصلاح الذي ينبغي فعله لما فيه من منفعة . ولم تعلم أنها هي المُفْسِدَة والسَفِيهَة للرّان الذي غلّف القلوب . فما طبيعة هذه

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : الطبراني في المعجم الكبير ٣٥/٢ برقم ١٢٠٣. والحاكم في المستدرك ١٨٠/٤ وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسعيد بن محمد هو الوراق ، ثقة مأمون » . وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣٧٣/٨ برقم ٨٩١٣ من حديث جابر رضي الله عنه ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣١٥/٩ وقال : « ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني » .

(٢) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ١٦٧/١ . وتفسير ابن كثير ٧٧/١.

النفس إذاً ؟

لقد جعلت امرأة العزيز نفسها أمارة بالسوء فقالت فيما يحكيه القرآن عنها : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف ٥٣] ، فماذا كان من صنيعها حتى وصفت بذلك ؟ إن النص القرآني الكريم يقدم وصفاً كاملاً لها : فهذه النفس تعرف أن الفاحشة سوء ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ [يوسف ٢٥] ، ولكن سيطرت عليها شهوتها حتى بلغت شغاف قلبها ، فنسيت ذاتها ومركزها ، وعميت عن كل فضيلة وأدب ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف ٣٠] ، فبادرت إلى تنفيذ ما انعقد عليه عزمها من تعاطي الفاحشة ، فأعدّت المكان وأمّنته ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ [يوسف ٢٣] ، وهيّأت نفسها فتزينت وتبرّجت ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف ٢٣] وفي قراءةٍ ﴿ هِئْتُ لك ﴾ . ولما تمنّع يوسف عليه السلام وأبى ؛ زاد إصرارها ، فحاولت منعه من الخروج ، وطاردته ، وجبذت ثيابه حتى تقطّعت ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ الآية. [يوسف ٢٥] ، وحينما فوجئت بزوجها العزيز حاضراً كالت الاتهام بالباطل لهذا النبي الكريم ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف ٢٥] ، ثم لم ترتدع على الرغم من ظهور كذبها وصدق يوسف عليه السلام ، ولم تأبه لغمز النساء ولمزهن ، بل جاهرت برغبتها ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف ٣٢] ، وانتهى الأمر إلى معاقبة يوسف عليه السلام بالسجن تجاوزاً وظلماً ، ولم يكن ثمّت وازع يمنعهم عن الظلم رغم ظهور الآيات الدالة

على طهارته وبراءته ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف ٣٥] .

وإذا علمنا أن النفس الأمارة بالسوء هي التي تضع نفسها في إطار السوء ، وتدور في فلكه ، ولا تَهُمُّ إلا به ، وتفقد كل وازع يمنعها عنه. فالنفس المنافقة إذاً أمارة بالسوء لا ريب، فهي مخادعة ، مريضة ، كاذبة ، مفسدة ، سفيهة ، مستهزئة بالحق وأهله ، تشتري الضلالة وتتاجر بها ، وتتردد بين باطلين .

غير أنه ليس من سَمْتِ الإسلام إهمال النفس الأمارة بالسوء ، بل الدعوة مبذولة ، فقد أمرت النفس المنافقة بالإيمان ﴿ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ الآية. [البقرة ١٣]، ونهيت عن الإفساد ﴿ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الآية. [البقرة ١١] ، إلا أنها لما بلغت من السوء مبلغه كانت الإنابة عند أهلها قليلة . بل كانت نفس امرأة العزيز أفضل حالاً إذ أقرَّت من بعد ، وبرَّأت يوسفَ عليه السلام ، ولم تغدر به حال غيبته ، والتمست مغفرة الله تعالى ورحمته[1] : ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف ٥١- ٥٣] .

ثانياً : الخطاب القرآني للنفس الكافرة :

الكفر في اللغة يعني الستر والتغطية ، وسمي المرء كافراً لأنه مغطى على قلبه[2] .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ٥٣٥/٧. وهنالك أقوال أخرى غير ما أشير إليه في معنى قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ .

(٢) انظر : لسان العرب لابن منظور ١٤٤/٥ (كفر) .

وفي الشرع : نقيض الإيمان ، يقول الراغب الأصفهاني : « والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية ، أو النبوة ، أو الشريعة ، أو ثلاثتهم »[١]. وهو على أربعة أوجه[٢] :

١- كفر إنكار : بألا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به (كفر القلب واللسان) .

٢- كفر جحود ، بأن يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ، ككفر إبليس ، وأمية بن أبي الصلت ، وأهل الكتاب (أهل العلم منهم) .

٣- كفر عناد ، بأن يعترف بقلبه وبلسانه ، ولا يدين به ، حسداً وبغياً ، ككفر أبي جهل وكبراء مكة المكرمة .

٤- وكفر نفاق ، وهو أن يقر بلسانه ، ولا يعتقد بقلبه .

فمصطلح الكفر يشمل جميع هؤلاء ، والخطاب القرآني في آيات سورة البقرة يعنى بأحوال النفس الكافرة ، فنجده يميزها عن غيرها بالسوء في ذاتها وفي مسلكها ، ومن أمارات ذلك ما يأتي :

أ- **ترك الحق عن علم** ، قال تعالى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة ٤٤] ، والمعنيون بالخطاب هنا من أهل الكتاب ؛ اليهود بخاصة . فكبراؤهم وعلماؤهم يأمرون بالبرِّ، والأمر بالشيء يقتضي الفقه به ، وهو معنى زائد عن مجرد العلم . والبرُّ اسم للصدق في الاعتقاد أو في العمل أو فيهما معاً ، وأنسب الأقوال في البرِّ المأمور به هنا هو أن طائفة من اليهود كانت تسر لقراباتهم من المسلمين بالمصاهرة أو الرضاع أن اثبتوا على دينكم

---

(١) المفردات له ٤٣٤ .

(٢) انظر : النهاية لابن الأثير ١٨٦/٤ . ولسان العرب لابن منظور ١٤٤/٥ (كفر) .

وما أنتم عليه فإنه الحق[1]. ولكن نفوسهم أصيبت بداء النسيان غير المعفي عنه ، فما نسيانهم عن ضعف ذاكرة ، ولا عن ذهول المعلوم من غير قصد ، بل تَرْكٌ عن عَمْد[2] ، بدلالة أمرين :

أولهما : الأمر بالبر ، ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ ، وليس الآمر بالبر ذاهلاً عنه في الحقيقة ، وإلا لفاته الأمر به ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، فهو إذاً عارف به ، مدرك لفوائده وعواقبه ، ولكنه تركه عن قصد .

والثاني : تلاوة التوراة ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾، والتلاوة تختص بشيء « إذا قرأته وجب عليك اتباعه »[3] ، فالتلاوة تعني الاتباع ، وأهل الكتاب يدرسون التوراة ، ويدعون اتباعها والتمثل بأوامرها ونواهيها ، وليس هذا من شأن الغافل أو الناسي.

فما الذي أرداهم إلى هذه الدركة العجيبة المستقبحة ؟ إنه الرّان والهوى ، شغلهم عن التصديق بالبشارة ، وعن التصديق بدلائل النبوة ، واستحوذ على هذه النفس فمنعها الخير الذي كانت تَتَرَقّبُه وتَسْتَفْتِح به . ولما لم يكن للخير الذي تعلمه أثر في اعتقادها وسلوكها ؛ كان الشر غالباً عليها ، فهو الموجِّه والمسيِّر .

ب- **الظُّلْم**، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ الآية. [البقرة ٥٤] .

فهذه الآية الكريمة مع ماتقدمها من قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٢٨٨ . وتقدم .

(٢) انظر : الكشاف للزمخشري ١/ ١٣٣ . والتحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ٤٧٥ .

(٣) المفردات للراغب ٧٥ . وانظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٣٥١ .

لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة ٥١] ، تؤكدان اتصاف النفس الكافرة بالظلم ، وأصله « وضع الشيء في غير موضعه »[١]. وصورة الظلم هنا : النزوع إلى الكفر ، والعجلة إلى الفتنة . فقد ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه ، وما إن فات بعض الوقت حتى فتنهم السامري بعجل صنعه لهم من حلي القبط ، وألقى فيه قبضة من التراب التي اقتبسها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فلما صوّت العجل افتتنوا به وعبدوه إلا هارون عليه السلام ومن تبعه ، وما زال عباد العجل عاكفين عليه حتى رجع إليهم موسى عليه السلام ، فنسف العجل ، وأمرهم بقتل أنفسهم[٢] .

فظلم هؤلاء إنما هو لأنفسهم وذواتهم ، ويقال : ظلم الإنسان نفسه ؛ إذا فعل فعلاً يعود عليه بمكروه . وأي مكروه أشد من أن يرتد الإنسان فيعرض نفسه لمثل هذه العقوبة الدنيوية ؟ أو للخلود في النار يوم القيامة ؟!

ويتجدد الظلم مرة أخرى، فتعرض هذه النفس عن شريعة الله تعالى ، بعد مشاهدتها للعديد من الآيات والمعجزات، وإكرامها بنعم لم يسبق لغيرها مثلها[٣] ، قال تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة ٥٧] . وما ذاك إلا انتقاص لذات النفس وإضرار بها ، ووضع لها في أتون التهلكة والعذاب عوض أن تكون مرحومة منعمة .

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/١٣٥ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ١/٢٩٢ . وزاد المسير لابن الجوزي ١/٨١ . وتفسير ابن كثير ٢/٢٤٨ .

(٣) انظر مفصلاً : تفسير الطبري ١/٢٩٣. والمحرر الوجيز لابن عطية ١/٣٠٣. وتفسير القرطبي ١/٤٠٤. وزاد المسير لابن الجوزي ١/٨٣ .

❖ فقد أعرضت بعد الإظلال بالسحاب في التيه (صحراء سيناء) أربعين سنة، بل هو عند عبدالله بن عباس رضي الله عنهما « غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله عزوجل فيه يوم القيامة، كان معهم في التيه »[1].

❖ وبعد إنزال المَنِّ، أياً كان : خبزاً رقاقاً، أم عسلاً، أم شبه العسل (طرنجبيناً)[2]، أم شراباً، أم صمغة. ولم ليس كل ذلك؟! فهذه حال إكرام، ولا يبعد في فضل الله تعالى أن يعطي كل نفس ما تشتهي.

❖ وبعد إنزال السلوى، سواء كانت طير السماني، أو شبيهة به، أو قريبة من الحمام. أو كانت عسلاً كما في لغة كنانة، وشعر خالد بن زهير الهذلي[3] :

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ألذُّ من السلوى إذا ما نَشُورُها

❖ وتزيد آية الأعراف نعمة تفجير الماء، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ ﴾ الآية. [الأعراف ١٦٠].

رزقت ذلك كله بغير سبب معتاد، فليس من السنن الكونية المألوفة دوام إظلال السحاب أربعون عاماً، ولا نزول الطعام من السماء، ولا حضور الطير في تلك الصحراء القاحلة، ولا تَفَجُّر اثني عشر نبعاً للماء فيها. كل تلك الآيات والمعجزات لموسى عليه السلام، والكرامات لأتقياء بني إسرائيل، ولكن النفس هذه لم تقابل النعم بالشكر، بل وضعت الأمور في غير نصابها، وقابلته

(١) تفسير الطبري ١/٢٩٣.

(٢) انظر : تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ٤٩.

(٣) ذكره السكري في شرح أشعار الهذليين ١/٢١٥.

بالنقصان والمعصية ، حينما أعرضت عن شريعة الله تعالى التي بها عُزِّزت ونُصِرت وحُرِّرت .

ج- **نقض المواثيق** ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ الآية. [البقرة ٨٤- ٨٥] ، فهذا النص الكريم يحكي حال اليهود بقبائلهم الثلاث : بني النضير ، وبني قريظة ، وبني قينقاع ، مع حلفائهم من الأوس والخزرج ، فقد كانوا إذا احتربت الأوس والخزرج عبّاد الأوثان نصر كلٌّ حليفه، فقتل بعضهم بعضاً ، وأخرجوا المنهزم منهم من بيته ، وانتهبوا ماله ومتاعه . ثم من وقع أسيراً منهم افتدوه [١].

وصورة النَّقْضِ هنا تلاعب هذه النفس بأحكام الشريعة : فالقتل حرام ، والمظاهرة وما يتبعها من الإخراج من الديار وانتهاب المال والمتاع حرام أيضاً ، ولكن فداء الأسارى واجب . وقد فعلت ذلك كله رياء وسمعة ، وابتغاء عرض الدنيا ، فلم تنزل عند حكم الشريعة فيما حُرِّم عليها ، ونزلت عليه فيما وجب عليها. فاستحقت التوبيخ ابتداءً ، لأن أهل الملة الواحدة كالنفس الواحدة كما قال النبي ﷺ : « مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » [٢] .

---

(١) انظر : تفسير الطبري ١/٣٩٧- ٣٩٨ . وتفسير ابن كثير ١/١٨١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٩٩٩ برقم (٢٥٨٦) .

ففعل تلك النفس مستقبح شرعاً وعقلاً وطبعاً . ثم التوعُّد بالخزي في الدنيا وأشد العذاب في الآخرة من بَعْدُ ، لأن شريعة الله تعالى لا تقبل التجزئة ولا التلاعب بها ، ومن كفر ببعضها فقد كفر بها أجمع . قال تعالى : ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[البقرة ٨٥] .

د- **الانحطاط والتكبر** ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[البقرة ٨٧] .

فالحديث في هذا الخطاب عن أعظم نعمة وُهِبَتْها الإنسانية ، وكان حظ بني إسرائيل منها وافراً، ألا وهي (الرسالة) ، إذ بعث فيهم موسى عليه السلام هادياً ومنقذا ، وأنزلت عليه التوراة . وأرسل الرسل والأنبياء من بعده تترى لإقامة الشريعة والبيان والتعليم . ثم بعث عيسى عليه السلام وأوتي الإنجيل مع التوراة ، وأيِّد بالمعجزات الدالة على نبوته ، وبروح القدس (جبريل عليه السلام) .

ولكن لما كانت النفس منهم كافرة ؛ وقفت إزاء هذه النعمة موقفين عجيبين :

أولهما : حينما أرادت إخضاع الرسالة الإلهية لحاكمية الهوى ، وليس ثمت شيء أسوأ من ذلك. فالهوى ينحط بصاحبه إلى حضيض الشهوات والملذات ، لأنه خالٍ من كل خير ، بينما ترتقي الشريعة الإلهية بالنفوس إلى أعلى مراتب الطهر والفضيلة ، لأنها تجيء بكل خير . فكأنما يريد الوضيع الهابط محاكمة الشريف العزيز .

والثاني : حينما استكبرت ، فأعطت ذاتها ما ليس لها ، وظنت أنها في رتبة

أعلى من رتبة النبوة والرسالة ، فامتنعت بذلك عن قبول الحق واتباع الرسل .

وهنا مكمن العَجَب ، فهذه النفس المنحطة الهاوية في واقعها ومسلكها ، تتشبع بالوهم فتتعاظم وتتعالى ، مع أنها فارغة جوفاء ، لا تعي الخير ، ولا تحس بذنب . فما عساها أن تفعل وهذه حالها ؟ إنه أقبح فعل يتصور مع أهل الفضيلة والخير : قتل أنبياء الله تعالى ، صفوته من خلقه وخيرته من عباده ، بلا رهبة ولا مبالاة ، فربما قتلوا في اليوم الواحد سبعين نبياً [1] ، ثم غدوا على أسواقهم وكأن شيئاً لم يكن . وأما من لم يمكّنوا من قتله ، فإنهم لا يقصرون في تكذيبه وإيذائه .

هـ- **الزهد في الحق** ، وتثمين الباطل . قال تعالى : ﴿ **بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ [البقرة ٩٠] ، فالخطاب القرآني الكريم يُشَبِّه الإيمان بسلعة نفيسة ، قُدِّمت أكرم تقديم ﴿ أَنْزَلَ اللهُ ﴾ ، وجعلت النفس ثمناً لها ، فزهدت بها هذه النفس الكافرة ، وأخذت تطلب الكفر (السلعة الأخرى) وتُنَقِّب عنه، فما إن عثرت به حتى باعت ذاتها ، واشترته بما تحصل لها من ثمن، معتمدة على الكذب لتبرير إقدامها على هذه التجارة الخاسرة ، فصورت المكاسب الدنيوية على أنها سلعة ثمينة لا ينبغي التفريط بها .

ولأنها لا تجهل الحقائق ، بل تعرف الإيمان وآثاره الدنيوية والأخروية ، وتعرف الكفر ومضاره في الأولى والآخرة . توجهت بالحسد لمن أنعم الله تعالى عليهم بالهداية ، وجهدت في إزالة تلك النعمة عنهم .

ذلكم هو بغي النفس : طلبٌ للباطل ، وكذبٌ على الذات ، وحسدٌ للآخرين .

ويبقى زهد النفس الكافرة في **الحق** وتعظيمها للباطل متجدداً ، قال تعالى :

---

(١) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ٣٨٧/١ .

﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ١٠٢] . فالخطاب القرآني الكريم يكشف سلوك هذه النفس الكافرة ، آبية الحق ، قد انقلب حالها ، وفسدت فطرتها ، فلم تعد تلتفت إلى الحق بوجه من الوجوه ، بل وأصبح الباطل عندها حقاً متبعاً .

فهاهي تنبذ القرآن الكريم والتوراة لاتفاقهما على الحق ، وتشتد جرياً خلف الباطل . وتعمى عن الحق الذي كان نبي الله سليمان عليه السلام يعتقده ، ويحكم به ويأمر ، ولا ترى إلا الكذب المفترى[1] عليه فتصدقه ، وتنسبه إليه ، ﴿ وَٱتَّبَعُوا

(١) تعددت الأقوال في المراد بذلك الكذب ، فقيل : هي كتب أخذها سليمان عليه السلام من السحرة ودفنها تحت كرسيه لما فيها من الكذب وتضليل الناس ، فلما مات ، قال شيطان : ألا أدلكم على كنز سليمان الممنع الذي لا كنز مثله ؟ فأخرجه للناس من تحت الكرسي ووقع في قلوب كثير منهم أن ملك سليمان عليه السلام وما سخر له إنما كان بفعل هذا السحر ، فتناسخوه وتعلموه . [انظر : أسباب النزول للواحدي ٣٥. وتفسير السمعاني ١/ ١١٥ . والتفسير الكبير للرازي ٣/ ٢٠٣] .

وقيل : إن الشياطين كتبت السحر على لسان آصف (وزير سليمان) ودفنته تحت كرسي سليمان عليه السلام في الحين الذي نزع منه ملكه ، فلما رد الله تعالى إليه ملكه بقي مدفونا في مكانه حتى توفي ، فاستخرجته ، وقالت للناس : إنما ملككم سليمان بهذا . فأقبل عليها السفلة يتعلمونها وتركوا كتب الأنبياء . [انظر : أسباب النزول للواحدي ٣٥ . وتفسير السمعاني ١/ ١١٥].

وقيل : إن الله تعالى خص سليمان عليه السلام بعلوم فأظهر بعضها ودفن الكتب لأجل إن هلك الظاهر يبقى المدفون ولا تفقد تلك العلوم بالكليه . إلا أنه بعد برهة من الزمن توصل منافقون إلى كتابة سحر

مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾ .

وكما كذبت عليه يهود من قبل ؛ فعلت ذلك من بعد ، فقال قائلهم : ألا تعجبون من محمد، يزعم أن سليمان كان نبياً وما كان إلا ساحراً . فكان لابد من بيان الحقيقة : حقيقة الإيمان التي لم تغادر سليمان عليه السلام طرفة عين ، وحقيقة الكفر التي غلفت قلوب هؤلاء ، فقال الله تعالى مبرئاً نبيّه ومكذباً هؤلاء : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ . فالسحر[1]

يوافق تلك العلوم في بعض أوجهه ، فلما مات سليمان عليه السلام اظلعوا الناس على تلك الكتب ، وأوهموهم أنها من عمل سليمان عليه السلام نفسه ، وأنه ما بلغ ما كان فيه إلا بهذه الأشياء . [انظر : التفسير الكبير الرازي ٣/٢٠٣ . وغرائب القرآن للنيسابوري ١/٣٨٦] .

(١) هاهنا مسألتان : **المسألة الأولى** تعريف السحر ، وهو في اللغة : الخداع مع الخفاء ولطف المأخذ . وعرفه بدر الدين العيني اصطلاحاً بأنه : أمر خارق للعادة ، صادر عن نفس شريرة ، لا يتعذر معارضته [عمدة القاري ٢١/٢٧٧] . وقال الأزهري : أصل السحر : صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره . وذكر له الراغب الأصفهاني ثلاثة معان : **الأوَّلُ** الخِدَاعُ وتَخْيِيلاَتٌ لا حَقِيقَةَ لهَا نحوُ ما يَفْعَلُه المُشَعْبِذُ بِصَرْفِ الأبْصَارِ عمَّا يَفْعَلُه لِخِفَّةِ يَدٍ ، ومنه قولُهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ [الأعراف ١١٦] . **والثاني** : استجلاب مُعاونةِ الشَّيْطَانِ بِضَرْبٍ مِن التَّقرُّب إليه كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء ٢٢١- ٢٢٢] . **والثالث** : ما يَذْهَبُ إليه الأغْتامُ وهو اسم لفعلٍ يَزْعُمون أنه من قُوَّته يُغَيِّرُ الصُّوَرُ والطَّبَائِعَ فَيَجْعَلُ الإنسانَ حماراً ، ولا حقيقةَ لذلك عِندَ المحصِّلينَ . [انظر : المفردات للراغب ٢٢٦] .

والمسألة الثانية في حقيقته : فمذهب أهل السنة والجماعة وجمهور العلماء على أن للسحر حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء . وخالف أبوبكر الرازي وأبوإسحاق الأسترابادي وأحمد بن علي الجصاص وعامة المعتزلة فذهبوا إلى أن السحر تخييل وتمويه لا حقيقة له . [انظر : شرح النووي لصحيح مسلم ١٤/١٧٤ ، وعمدة القاري للعيني ٢١/٢٧٧ . وتفسير القرطبي ٢/٤٦ . والتفسير الكبير للرازي ٣/٢٠٥ . وأحكام القرآن للجصاص ٢/٤٢] .

حرام تعلمه وتعليمه ، واعتقاد إباحته كفر[1] . فليس من شأن المؤمن الصالح الاشتغال به ، ولكنه شأن هذه النفس الكافرة التي انقلب حالها ، فتجاهلت ما تعلم : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ ، وانساقت خلف هواها دونما رادع ، فساء حالها حتى بلغت أدنى دركة ، وذلك حينما جعلت ذاتها ثمنا لذلك الكفر : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

و- **فساد المَعْدِن** ، قال تعالى : ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[2] [البقرة ١٠٩] ، فالله تعالى يحذر عباده المؤمنين كفارَ أهل الكتاب ، ويكشف لهم سوء معادنهم . فالوَدّ الحب والتمني ، والودود المحب[3] ، فينتظر من مثله أن يمحض النصح ، ويرشد

---

(١) اختلف العلماء في حكم الساحر ، فذهب الإمام أبوحنيفة ومالك وأحمد إلى أن الساحر كافر بالله وتعلُّم السحر وتعليمه كفر وردة ، ويقتل ولا يستتاب . وذهب الشافعي وأحمد في قول ثان له إلى أن السحر منه ما هو كفر ، ومنه ما هو معصية كبيرة وليس بكفر ، فما كان من الأول فتعلمه وتعليمه كفر . وما كان من النوع الآخر فحرام تعلمه وتعليمه ، ويعزر فاعله ويستتاب ولا يقتل . [انظر : شرح النووي لصحيح مسلم ١٤/١٧٦ ، المغني. وشرح العقيدة الطحاوية ٢/٧٦٤] . وخالف الفخر الرازي فأباح تعلم السحر ، بل جعله واجباً لأنه يتوصل به إلى معرفة المعجز . وأنكر الحافظ ابن كثير ذلك عليه . [انظر : التفسير الكبير للرازي ٣/٢١٤ . وتفسير ابن كثير ١/٢١٦].

(٢) نبه العلماء إلى أن قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ منسوخ بقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة ٢٩] . [انظر : الناسخ والمنسوخ للنحاس ١/١٠٦ . وتفسير ابن كثير ١/٢٢٩] .

(٣) انظر : الصحاح للجوهري ٥/٥٤٩ مادة (ودد) .

إلى الخير ، ولكن النفس الكافرة بخلاف ذلك ، إذ تظهر الودّ وهي حاسدة ، وتتظاهر بالنصح ومرادها الإغواء والإضلال ، وتعلم الحق وتوقن به إلا أنها لا تبديه .

فحيي بن أخطب اليهودي وأخوه أبو ياسر وغيرهما من علماء يهود يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم ويثبتونه ، ولا يخفى عليهم شيء من أمره، فالبشارة لا تغادره ، والحينُ حينُ مبعثه، والمدينة المنورة (يثرب) مهاجره ، فحالهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ١٤٦] ، ولكن النفس منهم وضيعة ، فاسدة المعدن :

فموقفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين العداء ظاهرا وباطنا. فحيي بن أخطب يجيب أخاه لما سأله : « فماذا في نفسك منه ؟» فيقول: « عداوته والله ما بقيت »[1]. ويردد ساعة قدم للقتل مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أما والله ما لمت نفسي في عداوتك »[2] .

وسلوكها الحسد الذي يجعل صاحبه يكره الخير للآخرين ويتمنى زوال النعمة عنهم ، وإن لم يصر للحاسد منها شيء ؛ فهم يعلمون أن النبوة لن ترجع إلى بني إسرائيل مطلقاً سواء آمن الناس أم كفروا . ويدركون أن مقولتهم للمؤمنين بعد وقعة أحد : « ألم تروا ما أصابكم ؟ ولو كنتم على الحق ما هزمتم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم »[3] لم يؤمروا بها في شريعة، ولا يجدونها في كتاب. بل من

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/٢١٠ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٤/١٢٧ .

(٣) أسباب النزول للواحدي ٣٨ .

تلقاء أنفسهم .

وموقفها من الحق الجحود والإنكار عناداً لا جهلاً ، فمعرفتهم به بلغت من الوضوح حدّ اليقين ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ ، ولكن المعرفة تسلب حال العناد والمكابرة .

ولما كان الخيِّر الفاضل لا يسعى إلا إلى ما هو جميل ، ولا يجوز أن يكون حسوداً ؛ عُلم أن تلك النفس التي بين جنبي هؤلاء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم خبيثة الذات ، فاسدة المعدن ،لا يرتجى منها خير إن بقيت على هذه الحال .

لا ريب أن هذه النفس الكافرة أمارة بالسوء ، تصدر عنه ، وتدور في فلكه ، فتأتي أعمالها وتصرفاتها على أسوأ حال يمكن تصوره :

فعندما تظلم تنزع إلى الكفر والفتنة .

وعندما تنقض المواثيق تتلاعب بشريعةِ الله تعالى أنفسِ ما أعطي الإنسان من النعم .

وعندما يظهر لها الحق تعرض وتتكبر .

وإذا ما أكرمت قابلت الإحسان بالكفر والنكران .

فهي متفقة مع النفس المنافقة من حيث إنها أمارة بالسوء ، ولكن تختلف عنها من جهة الظهور والخفاء ، فالمنافقة خفية ، والكافرة ظاهرة ، لذا كان التعامل معها أيسر ، بغض النظر عن النتائج . فالدعوة مبذولة لهذه النفوس ، ولكن بأسلوب ملائم لحالها . ولعلنا نجمل معالم أسلوب خطاب سورة البقرة لها فيما يأتي :

١- **التيئيس** ، قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة ٤٨] . فالآية الكريمة تحذر من اليوم الآخر وما فيه من أهوال وعذاب ، وتُيَئِّس النفس الكافرة باتفاق العلماء[١] من النجاة في ذلك اليوم ،فالذين كفروا من أهل الكتاب لن ينتفعوا بعمل آبائهم من الأنبياء .

ولا شفاعة للنفس الكافرة مطلقاً ، لأنها مسخوط عليها وليست مرضياً عنها. فلا تشفع لها المؤمنة ، ولا تقدر الكافرة على الشفاعة لها ، لأن الله تعالى لا يأذن لمؤمن ولا لكافر بالشفاعة لها ، قال عبدالحق بن عطية : ويروى أن بعض الكفرة يقولون لإبليس يوم القيامة : « اشفع لنا . فيقوم ليشفع ، فتبدو منه أنتن ريح يؤذي بها أهل المحشر ، ثم ينحصر ويكع ويخزى »[٢].

ولا يقبل منها الفداء يوم القيامة ولو جاءت بملء الأرض ذهباً .

ولا ناصر لهم، لا من أنفسهم ، ولا من قراباتهم، ولا من معبوداتهم التي عبدوها من دون الله .

وهذه هي الأمور الثلاثة التي اعتاد الناس النجاة بها في الدنيا : الشفاعة والفدية والنصرة ، وقد انتفت جميعاً يوم القيامة ، فلا نجاة إذاً إلا بالإيمان والتصديق والعمل الصالح قبل يوم القيامة .

٢- **الحطّ من رتبتها** ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة ١٣٠] . فالسفه الرقّة والخفّة ونقصان العقل ، ويتعلق بالنفس

---

(١) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٢٨٣ . وتفسير القرطبي ١/ ٣٧٩ . وزاد المسير لابن الجوزي ١/ ٧٦ .

(٢) المحرر الوجيز له ١٣/ ٢٣ .

والرأي والخلق[1] . ومعلوم أن الرجل إن كان فيه مروءة وعزة لايقبل أن يوسم بالسفه من الآخرين ، فكيف يسَفِّه نفسه بنفسه ! إن الآية الكريمة تبين لنا أن الذي يربأ بنفسه عن الإسلام دين إبراهيم عليه السلام الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم ، يجهل حقيقة نفسه التي خلقها الله تعالى ويغبنها حقها ، ويستخف بها ، ويمتهنها ، ويهلكها[2] .

ومن يفعل هذا بنفسه فلا شك بأنه في أوضع حال وأدنى رتبة ، وفيه تحريض للنفس الكافرة أن تشعر بذاتها وتبحث عن كرامتها ، وتعود إلى الرتبة السوية التي أراد الله تعالى لها ، ولن يتم لها ذلك إلا باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وهي الحنيفية التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام .

ثالثاً : الخطاب القرآني للنفس المؤمنة :

تدل كلمة آمن في اللغة على معنيين : أولهما الأمانة ضد الخيانة ، والآخر التصديق [3]. وتطلق كلمة الإيمان في اللغة على معان منها : الإيمان ضد الكفر ، وبمعنى التصديق ، وبمعنى الثقة ، يقال : ما آمنت أن أجد صحابة إيماناً ، أي ما وثقت[4] .

ونبه الراغب الأصفهاني إلى أن للإيمان في الاصطلاح الشرعي استعمالين[5]: أحدهما للشريعة التي جاء بها المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومنه قوله تعالى :

---

(١) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ٤٩٣/١ . والمفردات للراغب ٢٣٤ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١٣٢/٢ . وفتح القدير للشوكاني ١٢٤/١ .

(٣) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٣٣/١ .

(٤) انظر : تاج العروس للزبيدي ١٣٥/٩ مادة (أمن) .

(٥) انظر : المفردات له ٢٦- ٢٧ ، وتعريفه للإيمان يوافق ما ذهب إليه المعتزلة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ الآية . [البقرة ٦٢] ، ويوصف به كل من دخل في فيها . والثاني للمدح ، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق .

وعرف أهل السنة والجماعة الإيمان اصطلاحاً بأنه : « تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان »[١] .

وإذا ما أنعمنا النظر في الآيات الكريمة من سورة البقرة لوجدنا لها حظاً وافراً من خطابها ، تمييزاً لها عن سائر الأنفس الأخرى ، إلى جانب التربية والتوجيه والتهذيب . ونعل أبرز ما ميزت به النفس المؤمنة ما يأتي :

أ- **الخيرية وصلاح العمل** ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة ١١٠] . فهذه الآية الكريمة تعلم المخاطب بأن الخيرية أصل في النفس المؤمنة :

لأن عملها ميز بالخير ، أحسن الأوصاف وأشرفها ، مع أن عمل الإنسان يحتمل الصلاح والفساد .

ولأنها أمرت بأفضل الأعمال : إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحُضَّت على ما ينفعها لصلاح الحال والمآل . ولولا أنها خيِّرة فاضلة لما أمل ذلك منها .

ولأنها إذا أمِرَت بخير ونُهِيتْ عن شر قبلت وارعوت ، يقول ابن عطية : « إنما أمروا هنا بالصلاة والزكاة لتحط ما تقدم من ميلهم إلى قول يهود (راعنا) ، والخير المقدم مُنْقض لأنه فعل . فمعنى تجدوه : تجدوا ثوابه وجزاءه »[٢] . يشير إلى ما

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ٢/٤٥٩ .

(٢) المحرر الوجيز له ١/٤٤٩ .

روي عن قتادة أن اليهود كانت تقول هذه الكلمة ، فزجر الله المؤمنين أن يقولوا كقولهم[1] .

ولما أرادت هذه النفس أن تقصر بعض جوانب الخيرية على ذاتها وتحصره في إطارها ، أرشدها الرب تبارك وتعالى إلى الأولى والأجمل ، فخيرية أهل الإيمان تتجاوز الذات ، وتشمل الإنسانية جمعاء ، كما أن الدعوة التي يؤمنون بها ليست خاصة بهم ، بل لكافة الأمم . قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢٧٢] ، قال سعيد بن جبير : « قال رسول الله ﷺ: لا تنفقوا إلا على أهل دينكم. فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ ، فقال رسول الله ﷺ: تصدَّقوا على أهل الأديان »[2]. وكان القصد من المنع أن يُسْلِموا ويدخلوا في الدِّين .

ب- السمو والرفعة ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة ٢٠٧]، وهنا صورة مشرقة من صفاء النفس المؤمنة ورقيها، فتعلقها بالله تعالى، وغايتها مرضاته ، فاستغنت بالله تعالى عن كل ما سواه ، وصغرت في عينها الدنيا بكل ما فيها :

فلما دعا داعي الإيمان ، بادر المهاجرون والأنصار إليه[3] متحملين المشقات

(١) انظر : تفسير الطبري ١/ ٤٦٩ . وذكر في معنى الآية أقوالاً أخرى .

(٢) أسباب النزول للواحدي ٩١ . وهنالك أقوال أخرى في سبب النزول ، انظر : أسباب النزول للواحدي ٩١- ٩٢ . وتفسير الطبري ٣/ ٩٤- ٩٥ . والمحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ٤٦٥- ٤٦٦ . وزاد المسير لابن الجوزي ١/ ٣٢٧ . وهذه صدقة التطوع ، وليست الزكاة الواجبة .

(٣) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ١٩٤ .

والصعاب ، ومطّرِحين أوهام الدنيا وزخرفها .

كما اشترى صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه نفسه بماله حرصاً على دينه وهجرة إلى الله ورسوله ، فتلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مبشراً : « أبا يحيى ربح البيع »[١] .

وإذا حان وقت الجهاد لم يتردد المؤمن ، وقدم نفسه الزكية ثمناً لدينه ، ورجاء مرضاة ربه ، فلما حمل هشام بن عامر على الصفّ يوم القسطنطينية قال أناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبوهريرة وأبوأيوب رضي الله عنهما : « ليس كما قالوا ، بل هذا قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ ﴾ »[٢]. وقال الحسن البصري: « أتدرون فيمن نزلت هذه الآية؟ في أن المسلم يلقى الكافر فيقول له : قل لا إله إلا الله، فإذا قلتها عصمت مالك ودمك، فأبى أن يقولها ، فقال المسلم : والله لأشرين نفسي لله ، فتقدم فقاتل حتى قتل »[٣] .

وإن وقع منكر سعى المؤمن إلى تغييره غيرةً على حرمات الله تعالى ، وبهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتأول الآية، إذ سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة ٢٠٦-٢٠٧] فقال : « إنا لله ، قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل »[٤] .

---

(١) انظر : أسباب النزول للواحدي ٦٧ .

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١٩٦/٢ .

(٣) أسباب النزول للواحدي ٦٧ .

(٤) أسباب النزول للواحدي ٦٨ . وإليه ذهب علي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم . انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ١٩٥/٢ .

ومعلوم أن مرحلة بذل النفس تتقدمها مراحل أخرى تروض فيها النفس وتثبت على الإيمان ، وإنما يتأتى ذلك بتقديم شقيق النفس وعديلها وهو المال ، قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة ٢٦٥] ، فبالبذل يزداد يقين المؤمن وتصديقه ، ويظهر تحققه وتثبته من أن الله تعالى سيجزيه أوفر الجزاء ، وذلك أن مشقة إخراج المال أشق على النفس من سائر العبادات الشاقة الأخرى ، فإذا ما روِّضت بالتحامل عليها ، وتكليفها ما يصعب عليها كان في ذلك تثبيت لها[1] فيستمر إيمانها ويدوم إخلاصها، بل يزداد ويتضاعف كما يكثر ثمر بستان بربوة أصابه مطر كثير، ولا تُخْلِف ثمرته مع القليل ، كما يبقى من ثمر البستان ما يكفي مع المطر القليل ، لكرم منبته[2] .

ج- **الانضباط الشرعي ومراقبة الذات** ، فثمت أحكام شرعية خوطبت بها النفس المؤمنة في جملة من آيات سورة البقرة ، ودل السياق على التزامها بها ، وأثبته حال الصحابة رضوان الله عليهم، وهي :

❖ قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى

(١) انظر : البحر المحيط لأبي حيان ٣١١/٢ . والكشاف للزمخشري ٣١٣/١ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٥٣٩/٥- ٥٤٠ . وذكر البغوي وجهاً آخر فقال: « هذا مثل مثوبة الله تعالى لعمل المؤمن المخلص ، فيقول: كما أن هذه الجنة تريع في كل حال ولا تخلف سواء قل المطر أو كثر ، كذلك يضعف الله صدقة المؤمن المخلص الذي لا يمن ولا يؤذي سواء قلت نفقته أو كثرت ، وذلك أن الطل إذا كان يدوم يعمل عمل الوابل الشديد» . [تفسير البغوي ٣٢٨/١] وفسر الطَّلَّ بالنَّدى .

ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٢٨] . وهذه الآية الكريمة في عدة الحُرَّة المطلقة المدخول بها من ذوات الإقراء . ولما كان الطلاق تخلية للأسباب الموصلة بين الزوج وزوجه في غير رضا ، فغالباً ما يقع حال نفور وتباعد ، فإن النفس في تلك الحال تعتورها أحوال شتى :

١- فقد ترغب المرأة في الاستعجال بالتخلص من تلك العلاقة الزوجية فتدعي انتهاء إقرائها ، أو تكتم حملاً بين أحشائها لتذهب بحق الرجل في الرجعة .

٢- وربما تقصد إلى الإضرار به من جهة النفقة فتزعم حملاً ، أو وقتاً في العدة ، فليتزم الرجل بنفقة لا تلزمه .

٣- وربما قصدت المرأة بالاستعجال جبر كسرها بالانتقال إلى زوج آخر .

٤- وقد يحملها الحياء أو خشية الغمز واللمز إلى الكتمان ، تريد بذلك التخلُّص من الظنون.

وكل تلك الأحوال النفسية مرابع للشيطان يكمن فيها ، ويحسِّن للنفس التجاوز والتساهل ، وعدم الانضباط الشرعي . فتأتي الآية الكريمة هذه لتنبه هذه النفس المؤمنة إلى الإيمان الذي اعتقدته واستقر في ذاتها ﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ ، وهن مؤمنات ، ويقتضي ذلك منهن الالتزام والانضباط حتى عند المكاره ، كما تقول للحُرِّ : إن كنت حراً فانتصر . ويتم ذلك :

بالالتزام التام بالعدة الشرعية التي حددت لها (ثلاثة قروء)[1] .

وبألا تكتم ما خلق الله في رحمها ، سواء كان حيضاً أم حملاً .

وبأن تقبل بحكم الله تعالى في حق الزوج بالارتجاع إذا لم تنقض العدة.

وبأن تؤدي الحق الذي عليها بالمعروف ، كما يلتزم الرجل بأداء ما يجب عليها بالمعروف ، فيعمل الرجل بما أوجب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت »[2] ، وتلتزم المرأة بالتزيُّن له، ولا تمتنع منه ، وتحفظه في نفسها وماله ... ونحو ذلك من الحقوق الشرعية بين الزوجين .

وبأن تعلم بأن الأفضلية للرجل من حيث يلزمها طاعته ولا يلزمه طاعتها . كما يجيئ التفضيل من حيث القوامة ، وامتلاك العصمة ، والإنفاق ، وحظه في الجهاد ، وفي الميراث ، وتقديمه للصداق[3]. وإن بلغت كراهية المرأة لزوجها حداً يمنعها من طاعته والقيام بحقه ، فلها أن تخالعه كما فعلت زينب بنت عبدالله ابن أبي بن سلول رضي الله عنها[4] .

وثمت وجه جميل قاله عبدالله بن عباس رضي الله عنهما هنا وهو أن « تلك الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة ، والتوسع للنساء في المال

---

(١) لفظ القرء يحتمل الطهر والحيض ، والخلاف بين العلماء في المراد بالقروء وقع بين الصحابة أنفسهم ، فقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وغيرها بالطهر ، وقال أبوبكر الصديق رضي الله عنه وغيره بالحيض . [انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ٢/٢٧٢. وتفسير ابن كثير ١/٤٠٤- ٤٠٥].

(٢) أخرجه أبوداود في سننه ٢/٦٠٦ برقم ٢١٤٢ واللفظ له . والنسائي في السنن الكبرى ٥/٣٦٩ برقم ٩١٦٠ . والبيهقي في سننه ٧/٣٠٥ . وأحمد في مسنده ٤/٤٤٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٣/٤٥٤- ٤٥٥ . وتفسير ابن كثير ١/٤٠٦ .

(٤) انظر الحديث في صحيح البخاري ٥/٢٠٢١ برقم ٤٩٧١ و ٤٩٧٢ .

والخلق »[1] . بمعنى أن الأفضل وهو الرجل ينبغي أن يتحامل على نفسه ، ويصبر على أذى امرأته ، ويسعها بخلقه ، ويوسع عليها من ماله قدر طاقته .

ويأتي قول الله تعالى : ﴿ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . لينبه إلى جانب المراقبة الذاتية ، فالمرأة هي المرجع في هذا ، لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتها ، وتتعذر البينة عليه [2]. فالتزامها بحكم الله تعالى ، والإبانة عن حالتها بصدق نابع من مراقبتها لله تعالى المطلع على سرائر خلقه ، والعزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره ، والحكيم في أمره وشرعه وقدره .

❖ وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة ٢٣٤] . والتشريع في هذه الآية الكريمة للحرة غير الحامل المتوفى عنها زوجها[3] . والتربص يعني التصبر ، والانتظار لأمر ينتظر زواله أو حصوله[4] . ويرى جمع من العلماء أن حكمة التربص أربعة أشهر وعشراً تبين الحمل ، أخذا بحديث رسول الله ﷺ : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١٧٥/٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤٠٦/١ . وإمكان التلاعب والإخفاء في زماننا أكثر منه عن ذي قبل ، فالحاجة إلى الأمانة والرقابة الذاتية أشد وأحوج .

(٣) وفي عدة الحامل قولان : الأول : الاعتداد بأبعد الأجلين . والثاني : أجلها وضع الحمل [انظر : المغني لابن قدامة ٢٢٧/١١] . وفي عدة الأمة المتوفى عنها قولان أيضاً : الأول : الاعتداد بشهرين وخمسة أيام . والثاني : كالحرة أربعة أشهر وعشرا [انظر : المغني لابن قدامة ٢٢٤/١١] .

(٤) انظر : المفردات للراغب ١٨٥ . والمحرر الوجيز لابن عطية ٣٠١/٢ .

يوماً . ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك . ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك . ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح » الحديث[1]. ولا أراهم قصدوا التحديد ، فالعدة تعبدية باتفاق العلماء ، وليس الشأن مجرد استبراء الأرحام ، وإلا فما بال غير المدخول بها تعتد أربعة أشهر وعشراً ؟! وهنا يظهر الانضباط الشرعي في سلوك النفس المؤمنة، فتلتزم المؤمنة بالعدة، فلا تتزين ولا تتطيب ، ولا تتعرض للخُطّاب بأفعالها، ولا تبيت خارج مسكنها الذي لزمتها فيه العدة. وكل ذلك انقياداً لأمر الله تعالى ، وإخضاعاً للنفس ، ولجماً لها عن شهوتها .

يقول البقاعي : « ولما كان الممنوع إنما هو العقد والتعرض له بالأفعال دون طلبه بالتعريض قال معبراً بالنفس لذلك ، وللتنبيه على أن العجلة عن ذلك إنما تكون شهوة نفسانية بهيمية ليكون ذلك حادياً على البعد عنها بأنفسهن ، فلا يبذلنها لزوج ، ولا يخرجن من منزل الوفاة ، ويتركن الزينة وكل ما للنفس فيه شهوة تدعو إلى النكاح »[2].

ويصاحبها الانضباط بعد انتهاء العدة كذلك ، فتحافظ على حشمتها وعفافها ، وتشهد على انقضاء عدتها ، وتلتمس النكاح الحلال الطيب .

وتظل الرقابة الذاتية مطلباً ضرورياً هنا ، فمدة الإحداد ليست بالقصيرة ، والإلزام الخارجي بواجبات العدة لا ينضبط – إن لم يكن متعذراً – ، فالعمل عمل المرأة ، والشأن شأنها ، فلا ضابط لها إلا مراقبتها لربها المطلع عليها ، والعالم بأحوالها ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١١٧٤/٣ برقم ٣٠٣٦ . ومسلم في صحيحه ٢٠٣٦/٤ برقم ٢٦٤٣ واللفظ له .

(٢) نظم الدرر له ٣٠١/٣ .

وإن النفس المؤمنة المتمتعة بالخصائص الآنفة ، تتطلب نوعاً من الرعاية والعناية تمكنها من الدوام على صفائها ونقائها وسلامة اعتقادها ، ولذا جاء الخطاب القرآني الكريم في آيات سورة البقرة متناولاً أساليب متكاملة تحقق لها ذلك بإذن الله ، ومن أبرزها ما يأتي :

١- ترسيخ مبدأ الرقابة الذاتية ، ويتحصل ذلك من خلال :

التذكير باطلاع الله تعالى على السرائر كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة ١١٠]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة ٢٦٥] .

والبصير أحد أسماء الله تعالى الحسنى ويعني « الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها »[١] مشاهدة تليق بجلاله وعظمته ، ولذا قيل : « من عرف أنه البصير ؛ زيّن باطنه بالمراقبة ، وظاهره بالمحاسبة »[٢] .

والتذكير بعلم الله تعالى المحيط ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٣١] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة ٢٣٤] ، والخبير من أسماء الله تعالى الحسنى ، ويختص بأن الله تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون[٣] ، وقال الراغب الأصفهاني : « الخبير العالم ببواطن

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٤/٦٤ مادة (بصر) .

(٢) أسماء الله الحسنى للرازي ٢٤٠ .

(٣) انظر : العقيدة في الله للأشقر ١٧٢ .

الأمور »[1] ، وقد قيل : من عرف أنه خبير ؛ كان بزمام التقوى مشدوداً ، وعن طريق المنى مصدوداً »[2] .

والتذكير باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢٨١]، جاءت هذه الآية الكريمة بعد أحكام تقدمتها : تحريم الربا وتحليل البيع ، والأمر بالأعمال الصالحة : إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وإنظار المعسر . والنفس هي الكاسبة باختيارها وإرادتها . ولا يخفى ما في ذلك من بعث للوازع الديني في نفس المؤمن لينجو من الهلكة باجتنابه الربا، ويحرص على السلامة بالتزامه الأوامر وقيامه بها، والكل راجع إلى اتقاء ذلك اليوم .

وإذا ما أيقن المؤمن باطلاع الله تعالى على السرائر ، وبعلمه الشامل ، وباليوم الآخر ؛ فإن مراقبته لذاته ستجيئ على وجه حسن ، تكثر معها عندئذ حسناته وتقل سيئاته بتوفيق الله تعالى .

٢- الترغيب والترهيب ، ويقصد بالترغيب : حض النفس على الأعمال الصالحة بذكر المرغبات فيها . ويراد بالترهيب ردّ النفس عن الأعمال الطالحة بذكر الزاجرات عنها . ويتجلى هذا الأسلوب في عدة آيات منها :

قوله تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة ٢٢٣]، فقوله ﴿ واتقوا الله ﴾ تحذير من الوقوع في المحرمات ، وقوله ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ « خبر يقتضي

---

(١) المفردات له ١٤٢ .

(٢) أسماء الله الحسنى للرازي ٢٤٠ .

المبالغة في التحذير »[1] فالله مجاز عبده على كسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكل ذلك ترهيب . وأما الترغيب ففي قوله ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِين ﴾ ، فهو تأنيس لباغي الخير ، المستمسك بالهدى .

ولكن ما موضوع الترغيب والترهيب هنا ؟ إن الآية الكريمة تتحدث عن استمتاع الزوجين ببعضهما ، والذي يظهر – والله أعلم – أن الله تعالى ذكر المباح من ذلك وهو الإتيان في موضع الولد (الحرث) كيف شاء مقبلة أو مدبرة أو مستلقية . وأعرض عن ذكر المحرم استقباحاً له وهو الإتيان في الدبر ، ولكونه مفهوماً من السياق ، يقول الإمام محمد بن إدريس الشافعي : « وإباحته الإتيان في موضع الحرث يشبه أن يكون تحريمَ إتيانٍ في غيره . والإتيان في الدبر حتى يبلغ منه مبلغ الإتيان في القبل محرم بدلالة الكتاب والسنة »[2] . ثم خاطب سبحانه المؤمنين بقوله ﴿ وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ ﴾ حثاً لهم على التزام الطاعات ، ولكن لما كان التقديم يحصل بالخير وبالشرّ عقّب عليه بالترهيب والترغيب : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِين ﴾ .

والآية الثانية قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٣١] ،

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٢/٢٥٧ .

(٢) أحكام القرآن له ١/١٩٤ . وللتفصيل انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ٢/٢٥٥ وما بعدها . وتفسير القرطبي ٣/٩٦ . وتفسير ابن كثير ١/٣٨٧ وما بعدها .

والطابع العام للآية الكريمة الترهيب من التجاوز والتعدي في أحكام الطلاق والزواج .

فالمضارُّ بزوجه متجاوز للحق . واللاعب في التزويج أو التطليق مستخف بآيات الله تعالى . وكلهم ظالم لنفسه ، يعرضها لفساد المعاش وفوات المصالح في الدنيا ، وللوعيد وللعقاب في الآخرة . إلا أن الله تعالى - رحمة منه بعباده المؤمنين – لم يعاجلهم بالعقاب، بل أفسح لهم باب التوبة والإنابة، فذكرهم بنعمته عليهم في الاهتداء إلى الإيمان بعد الكفر والضلال ، ووعظهم بما في الكتاب العزيز والسنة المشرَّفة ليقفوا عند أوامرهما ويجتنبوا نواهيهما، ثم أمرهم بالتقوى ليسلموا من عذاب الله تعالى، وبمراقبته في السر والعلانية لأنه مطلع عليهم وعالم بكل أحوالهم .

والآية الثالثة قوله تعالى : ﴿ **وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ [البقرة ٢٣٥] ، فالآية الكريمة هنا تبيّن حكم الخطبة في العدة ، فالتعريض بكلام لا تصريح فيه جائز ، وما سوى ذلك حرام ، سواء كان تصريحاً ، أو نكاحاً إبان العدة ، أو إبراما للعقد فيها .

ولحمل المسلمين على الالتزام بهذه الأحكام وعدم تجاوزها اتخذت الآية سبيل الترهيب والترغيب ، فأعلمهم الرب تبارك وتعالى باطلاعه عليهم ثم حذرهم مما قد يقارفونه سراً ، وتوعدهم إن تجاوزوا أحكامه ولم يلتزموا بها ، ثم ذكرهم

بمغفرته لعباده وحلمه عليهم . وبذا تحجم النفس المؤمنة عن المخالفة خوفاً من العقاب ، وتقبل على الالتزام والطاعة رغبة في مغفرة الله تعالى وحلمه .

٣- توطين النفوس على الطاعة ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة ٢٨٤] ، قال فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بَرَكوا على الرُّكَب فقالوا : أيْ رسول الله ؛ كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فلما اقترأها القوم ذَلّتْ بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة ٢٨٥] ، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال : نعم . ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال: نعم . ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ قال : نعم . ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة ٢٨٥]

قال : نعم »[1] .

ولمثله نظائر في الجهاد وغيره ، أريد منه – والله أعلم – أن تتقبل النفس المؤمنة التوجيه الرباني وتذل له ولا تعترض عليه ، فلما ظهر من المؤمنين ذلك، خفف الله تعالى عنهم ، لعلمه بإمكانات الأنفس وطاقاتها ، فأثبت في شريعته ما يناسب حالها ، وعفا عما لا تقدر عليه ، تلطفاً بعباده ورحمة بهم .

وأما طبيعة هذه النفس المؤمنة ، فتنبئ الآيات الكريمة في سورة البقرة عن جانبين لها :

أولهما : **النفس المطمئنة** ، ويشير إليها قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة ٢٠٧] حيث اطمأنت إلى اعتقادها ، واطمأنت إلى وعد ربها، وبلغت من ذلك مبلغاً جعلها ترخص الروح، وتقدمه ثمناً لمرضاة الله تعالى ، غير شاكّة ولا آبية .

كما أشير إليها أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة ٢٦٥] ، فكأنما توحي لنا الآية الكريمة بأن هذه النفس لما اهتدت إلى الإيمان وعرفته ؛ أدركت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١١٥ برقم ١٢٥ . وذهبت أم المؤمنين عائشة وعبدالله بن عباس رضوان الله عليهم إلى أن الآية محكمة وليست بمنسوخة ، ورجحه الطبري لأنه من شرط الناسخ أن ينفي حكم المنسوخ من كل الوجوه ، وقوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ الآية. لم ينف المحاسبة . كما رجحه ابن عطية بحجة أن المراد : ما تقرر في النفس واعتقد في القلب واستصحبت الفكرة فيه (الشك والنفاق) ، وأما الخواطر فغير مرادة إذ لا سبيل لدفعها ، ولأنها ليست مما يكتسب . إضافة إلى أن الآية خبر ، والأخبار لا تنسخ . [انظر : تفسير الطبري ٣/١٤٩ . والمحرر الوجيز لابن عطية ٢/٥٣٠ ، ٥٣٢] .

نفاسته ، فاعتنقته ، ورغبت في الازدياد من خيره ، فراحت تجتهد في تثبيته وترسيخه بالبذل والإنفاق في سبيل الله .

والثاني : **النفس اللوامة**[1] ، وفي قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ الآية. [البقرة ١٨٧] ، والاختيان « تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة »[2] ، وهو هنا الجماع والأكل والشرب بعد النوم ، وكان محرماً على المسلمين إذا نام أحدهم أن يتعاطى شيئاً من ذلك حتى يفطر من الغد ، فقارفه بعضهم ، ثم ندم وأصبح عند النبي صلى الله عليه وسلم شاكياً، فعفا الله تعالى عنهم وأنزل رخصته لهم[3] . فربما حدّثت المؤمنَ نفسُه بما لا ينبغي ثم أحجم، أو تاب بعد إقدام ، فذلكم لوم النفس المؤمنة ، تؤنب صاحبها، ولا تدعه ماضياً فيما لا يرضي ربه ولا تحمد عاقبته .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ الآية. [البقرة ٢٣١] ، تنبيه لما قد يجري عند الشقاق من إضرار ، وصورته هنا أن

---

(١) أصل التلوُّم التردد . ومعنى اللوم : العتب والعذل . وسميت النفس لوامة لأنها تتردد بين الخير والشر . وللعلماء في المراد بهذه النفس أقوال : أولها : نفس المؤمن التي تقع في الذنوب ثم تلوم صاحبها على الذنب وتتوب منه ، وهذه صفة مدح . وهو قول الأكثر . والثاني : النفس الفاجرة الجشعة اللوامة لصاحبها على ما فاته من سعي الدنيا وأعراضها ، وهذه صفة ذم . والثالث : جميع النفوس ، فكل نفس تلوم صاحبها برة كانت أو فاجرة . [انظر : المحرر الوجيز لابن عطية ٢٠٧/١٥ . وزاد المسير لابن الجوزي ٤١٦/٨ . وتفسير ابن كثير ٧٠٢/٤ . والدر المنثور للسيوطي ٣٤٣/٨ . ورسالة في العقل والروح لابن تيمية ٤٨ . وفتح الباري لابن حجر ١٩١/١٣ . والمفردات للراغب ٤٥٧. وتاج العروس للزبيدي ٦٧/٩ مادة (لوم)].

(٢) المفردات للراغب ١٦٣ .

(٣) انظر : زاد المسير لابن الجوزي ١٩٠/١- ١٩٢ . وتفسير ابن كثير ٣٣٠/١ .

يُطِيل الرجل عدة زوجته إيذاءً لها أو لئلا تنكح غيره[1] . ولكن النفس اللوامة تدافع صاحبها وتعاتبه .

فليس المؤمن حقيقاً بالإضرار ، وإنما الأصل فيه الإحسان .

والمؤمن لا ينساق خلف الدوافع الشهوانية والغضبية للنفس ، بل يحملها على مقتضى الشرع .

وظلم الزوجة إنما هو ظلم للنفس وإهلاك لها ، إذ تتعرض بذلك للوعيد والعقاب ، والشأن في المؤمن أن يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية .

والجميل في هذه الآية الكريمة أنها أعانت النفس اللوامة على المدافعة ، وجعلتها أكثر فاعلية ، وذلك بإبانتها الطريقة المشروعة للإمساك أو الطلاق . وبتحريم الضرار وتوعد فاعله . ثم ذكرت في خاتمتها بعلم الله تعالى بأحوال الأنفس وخباياها : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ فلا يجدي المكر والخداع شيئاً ولا ينجي .

* * *

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٤٢٠- ٤٢١ .

الخاتمة :

النظر في الآيات الكريمة يقتضي من المسلم استعداداً كبيراً وعناية فائقة واستحضاراً لمكانة هذا الكتاب العزيز ، فهو كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولكن إذا صعبت على المرء الإحاطة بعلوم القرآن الكريم ؛ فلا أقل من بذل الوسع لمعرفة الآيات التي يتناولها موضوع بحثه ، فيعرف محكمها ومنسوخها ، ومطلقها ومقيدها ، وعامها وخاصها ، وأسباب نزول بعضها ، وأقوال العلماء الثقات فيها . وبذا تتضح له المعاني ، وتنجلي المقاصد ، وتحفظ القدم عن الزلل . وكل ذلك قدر الطاقة والإمكان . وكلما كان المرء شغوفاً بالقرآن الكريم كلما فتح الله عليه بفهم لم يحصل له قبل .

ولعلي أجمل فيما يأتي أبرز ما توصلت إليه في بحثي هذا :

١- النفس المخاطبة في آيات سورة البقرة ليس الروح وحده ولا الجسد وحده ، بل الإنسان بروحه وجسده .

٢- ينبغي للمسلم تجنب الخوض في الماهيات ، إذ لا يترتب على العلم بها حكم عملي ، ولا فائدة دينية ، بل الدلائل قائمة على أن الله تعالى حجب علم الماهيات عن بني آدم ، لذا لم يكن في كلام الفلاسفة عن ماهية النفس طائل .

٣- تكشف خصائص النفس عن عدة حقائق أهمها :

أ- تفرد الله تعالى بخلق الأنفس جسماً وعملاً ، وذلك ما أخبر الله تعالى به في قوله : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات ٩٦] .

ب- عجز النفس البشرية عن التشريع ، فآلات النفس محصورة في عالم الشهادة على ضعف فيها وقصور وقلة علم ، بينما لا بد للتشريع من الكمال المطلق وبخاصة في العلم والتقدير ؛ وليس ذلك إلا لله تعالى وحده . ومن أيقن بذلك أدرك جانباً من كمال حكمة الله تعالى في بعث الرسل ، وإنزال الشرائع .

ت- الوسطية والاعتدال لدى أهل السنة والجماعة ، فاعتقاداتهم في النفس بعيدة عن تخيلات الفلاسفة والمتصوفة وشططهم . ولا عجب ، فإنهم يركنون إلى خالق النفس ، العليم بدقائق أحوالها ، والخبير بأسرارها .

٤- تحديد أنواع الأنفس وفقاً للمعتقد ؛ ييسر التعرف على أنواعها من حيث الطبيعة ، ومن هنا عرفنا أن النفس المنافقة والكافرة أمارة بالسوء ، أما النفس المؤمنة فتتراوح بين طبيعتين : المطمئنة واللوامة .

وإن صح أن اللوامة صفة كل نفس فثمت فارق بيِّن ، فنفس المنافق والكافر تنطلق في لومها من دائرة السوء المطوقة لها ، بينما تنطلق نفس المؤمن من دائرة الإيمان .

وإن كنت موصياً بشيء ؛ فإني مذكر بقول رسول الله ﷺ: « اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة »(١)، زاد خالد ابن معدان رحمه الله - من قوله- « وهي فسطاط القرآن »(٢) ، وذلك أنني درست المنهج العقلي للدعوة فيها ، وأعددت هذا البحث ، ولازالت عجائبها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٥٣/١ برقم ٨٠٤ من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

(٢) سنن الدارمي ٣٢١/٢ برقم ٣٣٧٩ .

تظهر وتتجلى ، وسيجد الباحثون فيها الكثير الكثير مما يختص بالعقيدة ، والتربية ... وغير ذلك .

وأخيراً هذا ما انتهى إليه جهدي، وسطره قلمي، فإن كان صواباً ففضلٌ من الله تعالى ونعمة . وأما الخطأ فردّ على صاحبه ، وكل يؤخذ منه ويرد عليه عدا الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

فهرس المصادر والمراجع :

١- **القرآن الكريم** .

٢- **إتحاف السادة المتقين** للزبيدي ، دار الفكر ، بيروت .

٣- **أحكام القرآن** للجصاص ، دار الفكر ، بيروت .

٤- **أحكام القرآن** للإمام الشافعي ، تحقيق عبدالغني عبدالخالق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ .

٥- **أدب الكاتب** لابن قتيبة ، تحقيق : محمد أحمد الدالي ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ.

٦- **أساس البلاغة** للزمخشري ، تحقيق عبدالرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت .

٧- **أسباب النزول** للواحدي ، تحقيق أحمد صقر ، ط٣ ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ .

٨- **اصطلاحات الصوفية** للكاشاني ، تحقيق د. عبداللطيف العبد ، ط١ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ م.

٩- **إعراب ثلاثين سورة** لابن خالويه ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، ١٩٨٧م .

١٠- **الاقتضاب في شرح أدب الكتاب**. لابن السِّيد البطليوسي ، تحقيق مصطفى السقا و د. حامد عبد المجيد ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٨١م .

١١- **الإنسان الكامل** للجيلاني ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ، القاهرة .

١٢- **البحر المحيط** لأبي حيان ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت . مصور عن طبعة السلطان عبدالحفيظ عام ١٣٢٨هـ.

١٣- **البداية والنهاية** لابن كثير ، تحقيق د. أحمد ملحم ود. علي عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين ، ط٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ .

١٤- **تاج العروس** للزبيدي ، ط١ ، المطبعة الخيرية ، مصر ، ١٣٠٦ هـ .

١٥- **التحرير والتنوير** لابن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ م .

١٦- **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة** للقرطبي ، تحقيق أحمد حجازي ، دار إحياء الكتب العربية .

١٧- **التسهيل** لابن جزي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٣م .

١٨- **التصاريف** لابن سلام ، تحقيق هند شلبي ، ط١ ، الشركة التونسية ، تونس ، ١٩٧٩م.

١٩- **التعريفات** للجرجاني ، ط٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ .

٢٠- **تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)** ،دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ .

٢١- **تفسير البغوي** (معالم التنزيل) تحقيق محمد النمر ، وعثمان ضميرية ، وسليمان الحرش ، دار طيبة ، الرياض ١٤٠٩ هـ .

٢٢- **تفسير البيان** للطوسي ، تحقيق أحمد العاملي ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، بيروت، مصور عن مكتبة الأمين ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ١٣٨٣ هـ .

٢٣- **تفسير السمعاني** ، تحقيق ياسر بن إبراهيم وبلال غنيم ، ط١ ، دار الوطن ، الرياض، ١٤١٨ هـ .

٢٤- **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)** تحقيق محمود وأحمد شاكر ، دار المعارف ، مصر .

٢٥- **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ .

٢٦- **التفسير الكبير** للرازي ، ط٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٢٧- **تفسير غريب القرآن** لابن قتيبة ، تحقيق أحمد صقر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ .

٢٨- **تلخيص المحصل** للطوسي ، ط١ ، دار الأضواء ، بيروت ، ١٩٨٥ .

٢٩- **التلخيص في معرفة أسماء الأشياء** للعسكري ، تحقيق د. عزة حسن ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٦٩م .

٣٠- **التمهيد** لابن عبدالبر ، تحقيق سعيد أعراب ، ١٣٩٦ هـ .
٣١- **تهذيب إصلاح المنطق** للتبريزي ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط١ ، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ١٩٨٣م .
٣٢- **تهذيب اللغة** للأزهري ، تحقيق أحمد البردوني وعلي البجاوي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
٣٣- **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** لعبد القادر البغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٩هـ .
٣٤- **الدر المنثور** للسيوطي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٣م .
٣٥- **ديوان السموأل (ديوانا عروة بن الورد والسموأل)** ، دار بيروت ، بيروت ، ١٤٠٢هـ
٣٦- **رسائل إخوان الصفا** ، دار صادر و دار بيروت ، ١٩٥٧م .
٣٧- **الرسالة القشيرية** لأبي القاسم القشيري ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة .
٣٨- **رسالة في العقل والروح** لابن تيمية ، عناية طار السعود ، مكتبة الإيمان بالاسكندرية ، ودار الهجرة بدمشق .
٣٩- **رسالة في حدود الأشياء ورسومها** للكندي ، تحقيق محمد أبوريدة ، مطبعة الاعتماد ، مصر ، نشر دار الفكر العربي ، ١٩٥٠م .
٤٠- **الروح** لابن القيم ، تحقيق يوسف بديوي ، ط٤ ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤٢٠ هـ
٤١- **روضة الطالبين** لأبي حامد الغزالي ، تحقيق محمد بخيت ، دار النهضة الحديثة ، بيروت .
٤٢- **زاد المسير** لابن الجوزي ، ط٣ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٤ م .
٤٣- **سنن الترمذي** ، تحقيق أحمد شاكر وغيره ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٤٤- **سنن أبي داود** ، عناية عزت الدعاس وعادل السيد ، ط١ ، دار الحديث ، حمص ، سوريا ، ١٣٨٩ هـ .
٤٥- **سنن الدارمي** ، تحقيق فواز زمرلي وخالد العلمي ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ .

٤٦- **السنن الكبرى** للبيهقي ، عناية محمد عطا ، مكتبة الباز ، مكة المكرمة ، ١٤١٤ هـ .

٤٧- **السنن الكبرى** للنسائي ، تحقيق عبدالغفار البنداري وسيد حسن ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١ هـ .

٤٨- **سنن ابن ماجه** ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٥٣ هـ .

٤٩- **السنة** لابن أبي عاصم ، تحقيق ناصر الألباني ، ط١ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ .

٥٠- **شرح أبيات مغني اللبيب**، لعبد القادر البغدادي ، تحقيق عبد العزيز رباح، وأحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٧٩م.

٥١- **شرح أشعار الهذليين** ، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مراجعة محمود محمد شاكر ، مكتبة دار العروبة ، ١٣٨٤هـ .

٥٢- **شرح الصدور** للسيوطي ، عناية محمد الحمصي ، ط١ ، مؤسسة الإيمان ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ .

٥٣- **شرح العقيدة الطحاوية** لابن أبي العز ، تحقيق د. عبدالله التركي وشعيب الأرناؤوط ، ط٩، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٧ هـ .

٥٤- **شرح النووي لصحيح مسلم** ، ط٢ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٢ هـ .

٥٥- **شعر عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي** ، جمع وتحقيق زكي ذاكر العاني ، وزارة الثقافة العراقية، ١٩٨٠م.

٥٦- **شفاء العليل** لابن القيم ، عناية خالد العلمي ، ط٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٨ هـ .

٥٧- **الصحاح** للجوهري تحقيق أحمد عطار ، ط٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤م .

٥٨- **صحيح البخاري** ، تحقيق د. مصطفى البغا ، ط٣ ، دار ابن كثير ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ .

٥٩- **صحيح مسلم** ، عناية محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ .

٦٠- **العقيدة في الله** للأشقر ، ط١ ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٣٩٩ هـ .

٦١- **عمدة القاري** للعيني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٦٢- **العين** للفراهيدي ، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، دار الرشيد ودار الشؤون الثقافيه ، بغداد ، ١٩٨٤م .

٦٣- **غرائب القرآن** للنيسابوري ، تحقيق إبراهيم عوض ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة .

٦٤- **الغريب المصنف** للقاسم بن سلام ، تحقيق د. محمد العبيدي ، ط٢ ، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ودار سحنون للنشر والتوزيع ، ١٤١٦ هـ .

٦٥- **فتح الباري** لابن حجر ، المطبعة السلفية ، القاهرة .

٦٦- **فتح القدير** للشوكاني ، دار الفكر ، بيروت .

٦٧- **فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية** للزركان ، دار الفكر ، بيروت .

٦٨- **الفرق بين الفرق** لعبدالقاهر البغدادي ، ط٥ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ .

٦٩- **الفروق في اللغة** للعسكري ، ط١ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٣م .

٧٠- **الفصل في الملل والأهواء والنحل** لابن حزم ، تحقيق د. محمد نصر وعبدالرحمن عميرة ، ط١ ، عكاظ للنشر ، جدة ، ١٩٨٢م .

٧١- **كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة** للفارابي ، تحقيق ألبير نادر ، ط١ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٩م .

٧٢- **الكشاف** للزمخشري ، عناية مصطفى أحمد ، ط٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٧م .

٧٣- **كشف المحجوب** للهجويري ، عناية إسعاد عبدالهادي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠م .

٧٤- **لسان العرب** لابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ .

٧٥- **مبادئ الفلسفة** لرابوبرت ، ترجمة أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،

١٩٦٩م .

٧٦- **مجمع الزوائد** للهيثمي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ .

٧٧- **المحرر الوجيز** لابن عطية ، تحقيق الرحابي الفاروقي وعبدالله الأنصاري وعبدالعال إبراهيم ومحمد العناني ، ط١ ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر ، ١٣٩٨ هـ .

٧٨- **المخصص** لابن سيدة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

٧٩- **المستدرك** للحاكم ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٨٠- **المسند** للإمام أحمد ، دار صادر ، بيروت .

٨١- **المصنف** لعبدالرزاق ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط١ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٠هـ .

٨٢- **معاني القرآن وإعرابه** للزجاج ، تحقيق د. عبدالجليل شلبي ، ط١ ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٨م .

٨٣- **المعجم الأوسط** للطبراني ، عناية طارق عوض وعبدالله الحسيني ، دار الحرمين ، القاهرة ، ١٤١٥ هـ .

٨٤- **المعجم الكبير** للطبراني ، تحقيق حمدي السلفي ، ط١ ، نشر وزارة الأوقاف العراقية ، ١٣٩٨ هـ .

٨٥- **معجم مقاييس اللغة** لابن فارس ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط٣ ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٨١م .

٨٦- **المغني** لابن قدامة تحقيق د. عبدالله التركي ود. عبدالفتاح الحلو ، ط٢ ، هجر ، القاهرة ، ١٤١٠ هـ .

٨٧- **المفردات** للراغب الأصفهاني ، تحقيق محمد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت .

٨٨- **موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية** للتهانوي (كشاف اصطلاحات الفنون) ، منشورات شركة خياط للكتب والنشر ، ١٩٦٦م .

٨٩- **موسوعة الفلسفة** لعبدالرحمن بدوي ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،

بيروت ، ١٩٨٤ م .

٩٠- **الناسخ والمنسوخ** لأبي جعفر النحاس ، تحقيق د. محمد عبدالسلام محمد ، ط١ ، مكتبة الفلاح ، ١٤٠٨ هـ .

٩١- **نزهة الأعين النواظر** لابن الجوزي ، عناية السيدة مهر النساء ، ط١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند ، ١٩٧٤م .

٩٢- **نظم الدرر** للبقاعي ، عناية عبدالرزاق المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥ هـ .

٩٣- **النفس البشرية** لابن سينا ، عناية د. ألبير نادر ، ط٣ ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٦م .

٩٤- **النهاية** لابن الأثير ، تحقيق محمود الطناحي وطاهر الزاوي ، ط١ ، المكتبة الإسلامية ، ١٩٦٣م .

* * *